أسرار

عظمة الإمام البخاري وصحيحه

بسم الله الرحمن الرحيم

حُقُوقُ الطَّبعِ مَحفُوظَةٌ

الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠ م

دَارُ المَجْدِ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيع

ش عمر بن عبد العزيز - خلف مديرية الزراعة - طنطا

ت: ٠٤٠٣٢٧٤٠٢١ - ٠١٠٠٤٩٧٧١٤٢ - ٠١١١٣٥٧٥٩٩٥

E-mail: elmagdbook@yahoo.com

أسـرار

عظمة الإمام البخاري وصحيحه

إعداد

أ.د/عصام إبراهيم الحازمي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمـــد لله الَّذي ختم وَحْيـــه بإنزاله على أشرف العبيد، وجعل ســـنَّته مطهَّرة مقرونة بالحجج الواضحة والتَّأييـــد، ونصب لها أقوامًا أماتوا فيها نفوســـهم فما لهم عن الحقِّ من مَحيد، وأيقظهم لها فحمَوها من طرق الباطل فصارت محفوفةً بالقوَّة والتَّســـديد[1]، و صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على من رفع الله ذكره، وأظهر أمره، ولو كره الكافرون والمشركون والمجرمون.

وبعد،،

لكل عظيم وعملٍ عظيـــمٍ أسرارٌ فيها مكامن تميُّزه، ومنابع تفوُّقه، التي نال بها أعلى مكانة، وبزَّ بها أقرانه، حتى غدا جوهرةَ دُرٍّ في قلادة، في طارف الزمـــان وتلاده، ألا وإن أمير المؤمنين في الحديث أبا عبد الله البخاري أحد العظماء الذين أشرقت شمســـهم ومـــا غربت، وغدت بأخبـــاره الركبان وسرَتْ، فـــما هي تلك الأسرار التي نال بها أمير المؤمنين تلك العظمة حتى سكن حبُّه قلوبَ ذوي الإيمان؟ وما هي الأسرار التي نال بها صحيحه تلك المنزلة حتى أصبح ذكره على كل لسان؟

(١) بداية القاري في ختم صحيح البخاري، الطبلاوي محمَّد بن سالم المصري الشافعي (ناصر الدين) [مخطوط ص: ١]، موقع مخطوطات الأزهر الشريف مصر

إن في لفت الأنظار لتلك السيرة العطرة، وتفيُّؤ ظلالها، هدايةً لأصحاب الهمـــم العلية، والنفوس الطيبة الأبية، لبلوغ أعلى درجات الرضا عند رب البرية، ببيان الأسرار المرعية لمن أراد الوصول إلى تلك المراتب العلية.

كما أن فيها تحذيرًا لكل من تســـول له نفسه النيل من ثقة وضبط وعدالة البخاري، وتوهين الأحاديث الواردة في صحيحه بالشبهات المضلة.

إضافة إلى أن فيها بيانًا للأمة فضلَ ذلك الجيل الذي بذل الغالي والنفيس في سبيل نشر أنوار السنة الضافية، وتفجير ينابيع حِكَمِها الصافية.

* * *

المبحث الأول

ترجمة الإمام البخاري

أولًا- اسمه ومولده ونشأته:

مثلما تولد الأقمار ليلًا وتبدأ في إضاءة الدجى يولد العلماء الذين تستنير بهم الحياة ويسترشد بوجودهم الأحياء، ومن هؤلاء العلماء الذين ملأوا الدنيا نورًا وهدى الإمام الحجة، شيخ الإسلام، قدوة الحفَّاظ: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، فمن هو البخاري الذي لا تمر لحظة حتى يذكر في جنبات الأرض اسمه وتتردد سيرته وتنهال عليه الحسنات والأجور من المسلمين وغير المسلمين حين يدخلون في دين الله أفواجًا نتيجة لحديث حمله أو رسالة من النبي صلى الله عليه وسلم حملها؟

على أرض مدينة بخارى - إحدى مدن أوزبكستان اليوم-[1]، وفي سنة أربع وتسعين ومائة من هجرة خير المرسلين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ولد طفل صغير في بيت علم وفضل وورع، لأبوين فاضلين كريمين، فسموه «محمد»، كان

(١) هي مدينة قديمة واسعة رائعة، من بلدان ما وراء النهر، كانت قاعدة ملك السامانية، وكانت بأيدي الصغد والترك، وكان عليها ملكة اسمها خاتون لما فتحها المسلمون سنة ٥٣ هـ، وفي سنة ٨٧ هـ كان الأمر قد أفلت من يد المسلمين فهاجمها قتيبة بن مسلم الباهلي، وأعادها إلى حاضنة دار الإسلام، وهي اليوم من أعظم مدن جمهورية أوزبكستان، إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتي. ينظر: موسوعة المدن العربية والإسلامية للدكتور يحيى الشامي (ص: ٤٠٩).

أبوه "إسماعيل" تاجرًا، وعالمًا، ويروي نقلة التاريخ الثقات أنه كان من من العلماء العاملين بعلمهم، المتقين لربهم، فقد اشتغل بعلم الحديث وأدرك ثلة من أئمة علمائه، على رأسهم إمام دار الهجرة الإمام مالك(١)، والإمام حماد بن زيد(٢)، والإمام عبد الله بن المبارك(٣)، رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

وكان «إسماعيل» يتمتع بصفات عظيمة، ومناقب جليلة، من أهمها حرصه على طيب مطعمه، فكان لا يأكل إلا من حلال، ولا يدخل بيته إلا الحلال، وقد أفصح عن هذا السر العظيم عند موته، -وما كان ليظهره لولا حضور أجله- حيث قال لمن حضره من أهله: «لا أعلم في مالي درهمًا من حرام ولا شبهة"(٤)، وهذه الكلمات -على بساطتها- أحد أسرار إخراج

(١) هو مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الأنصاري إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، من مؤلفاته: «الموطأ»، و«تفسير غريب القرآن»، وجمع فقهه في «المدونة»، توفي سنة(١٧٩هـ). ينظر: الطبقات الكبرى ابن سعد ٥/ ٤٦٥، الديباج المذهب لابن فرحون ١/ ٨٢.

(٢) هو حماد بن زيد بن درهم، أبو إسماعيل الأزدي البصري الجهضمي، كان ضريرًا، وكان يحفظ حديثه كُلَّه، وكان من أئمة الحديث ثقةً ثبتًا حجة كثير الحديث، توفي سنة (١٧٩هـ). ينظر: طبقات ابن سعد ٧/ ٢٨٦، سير أعلام النبلاء ٧/ ٤٥٦.

(٣) هو عبد الله بن المبارك، أبو عبد الرحمن، الحنظلي بالولاء، المروزي كان إمامًا فقيهًا ثقة مأمونًا حجة كثير الحديث، و كانت له تجارة واسعة من تصانيفه: «تفسير القرآن»، و«الدقائق في الرقائق»، و«رقاع الفتاوى»، توفي سنة (١٨١هـ). ينظر: سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٧٨، وشذرات الذهب ١/ ٢٩٥.

(٤) الخبر رواه الذهبي في السير عن أَحْمَدَ بنَ حَفْصٍ، قال: «دَخَلْتُ عَلَى أَبِي الحَسَنِ -يَعْنِي: إِسْمَاعِيْل- وَالِدِ أَبِي عَبْدِ الله عِنْدَ مَوْتِهِ، فَقَالَ: لاَ أَعْلَمُ مِنْ مَالِي دِرْهَماً مِنْ حَرَامٍ، وَلاَ دِرْهَمًا=

تلك النسمة الطيبة الطاهرة، وهي ولده الذي صار بعد مدة من الزمان: الإمام البخاري، محدث الدنيا بحديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحب أعظم كتاب ضم بين دفتيه شيئًا من سنته.

حقيق والله أن يكون لمثل هذا الوالد ابن هذا شأنه.

الله أكبر، إي والله إن طيب المطعم وسلامة المال من الحرام لصفة عظيمة لها أثر كبير في طهارة القلوب ولينها، وزكاة النفوس وطيبها، ولذا فقد دأب عليها عباد الله المخلَصون من الأنبياء والمرسلين، ومن جاء بعدهم من الصالحين.

وإن شئت أن تعرف مكانة تلك الصفة الطيبة وتلك السمة العظيمة وأثرها فدونك فاعلم أنها هي الوصية التي وصى الله بها الأنبياء والمرسلين بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ [المؤمنون: ٥١]، ووصى بها عباده المؤمنين فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وكأني بهذه الآية وهي تبين أن صلاح الأعمال مربوط بطيب الطعام، ويؤكد ذلك مداومة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هذا الدعاء المبارك حين

= مِنْ شُبْهَةٍ. قَالَ أَحْمَدُ: فَتصَاغَرَتْ إِلَيَّ نَفْسِي عِنْدَ ذَلِكَ.ثُمَّ قَالَ أَبُو عَبْدِ الله: أَصْدَقُ مَا يَكُوْنُ الرَّجُلُ عِنْدَ المَوْتِ»، (سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٤٧).

يسلم من صلاة الفجر قائلًا: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا**»[1]، ففي ذلك إشارة إلى أن الخطوة الأولى للوصول إلى طلب العالم النافع والعمل المتقبل: الرزق الطيب.

وهكذا يشير ربنا لمن كان قبلنا من الصالحين الفارين بدينهم، والتاركين قومهم الفاسدين؛ أنهم كانوا يتحرون أعظم التحري في طعامهم، فقال سبحانه عن تلك الفئة المؤمنة: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ﴾ [الكهف: ٥١]. قال سعيد جبير: أي: أَحَلُّ طَعَامًا[2].

وكان نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشيد أيما إشادة بنبينا داود عَلَيْهِ السَّلَامُ فيقول: «**مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**»[3].

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٩ / ٤٤) برقم: (٩٨٥٠) وابن ماجه في «سننه» (٢ / ٨٥) برقم: (٩٢٥) وأحمد في «مسنده» (١٢ / ٦٤٠٠) برقم: (٢٧١٦٤) من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وحسنه ابن حجر في نتائج الأفكار (٢/ ٤١١).

(٢) أنظر: تفسير الطبري، محمد بن جرير (١٧/ ٦٣٨) ط: مؤسسة الرسالة ١٤٢٠هـ، ت: أحمد شاكر.

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب البيوع، بَابُ كَسْبِ الرَّجُلِ وَعَمَلِهِ بِيَدِهِ (٣/ ٥٧) برقم: (٢٠٧٢) من حديث المقدام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكان يسأل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قبل أصحاب الهمم العالية العلية والنفوس الطيبة الزكية عن أطيب الكسب فيقول: «**عَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ، وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ**»(١).

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخاف أشد الخوف من أن يدخل جوفه ما فيه شبهة فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ نَائِمًا، فَوَجَدَ تَمْرَةً تَحْتَ جَنْبِهِ، فَأَخَذَهَا، فَأَكَلَهَا، ثُمَّ جَعَلَ يَتَضَوَّرُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، وَفَزِعَ لِذَلِكَ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ، فَقَالَ: «**إِنِّي وَجَدْتُ تَمْرَةً تَحْتَ جَنْبِي فَأَكَلْتُهَا، فَخَشِيتُ أَنْ تَكُونَ مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ**»(٢).

ولم يكن عظيم هذه الأمة وصديقها بمنأى فقد روى البخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «**كَانَ لِأَبِي بَكْرٍ غُلَامٌ يُخْرِجُ لَهُ الخَرَاجَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يَأْكُلُ مِنْ خَرَاجِهِ، فَجَاءَ يَوْمًا بِشَيْءٍ فَأَكَلَ مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ لَهُ الغُلَامُ: أَتَدْرِي مَا هَذَا؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: كُنْتُ تَكَهَّنْتُ لِإِنْسَانٍ**

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٧/ ٣٨٤٤) برقم: (١٧٥٣٨) والطبراني في «الكبير» (٤/ ٢٧٦) برقم: (٤٤١١) والحاكم في «مستدركه» (٢/ ١٠) برقم: (٢١٧٠) من حديث رافع بن خديج رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وجوده الدمياطي في المتجر الرابح (ص: ٣٠٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٦٣): «فيه المسعودي، وهو ثقة، ولكنه اختلط، وبقية رجاله رجال الصحيح».

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ١٤٠٧) برقم: (٦٨٠٥)، وصححه الحاكم في «مستدركه» (٢/ ١٤) برقم: (٢١٨٤) وحسنه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (ص: ٥٤٧).

فِي الجَاهِلِيّةِ، وَمَا أُحْسِنُ الكِهَانَةَ، إِلّا أَنّي خَدَعْتُهُ، فَلَقِيَنِي فَأَعْطَانِي بِذَلِكَ، فَهَذَا الّذِي أَكَلْتَ مِنْهُ. فَأَدْخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَدَهُ، فَقَاءَ كُلّ شَيْءٍ فِي بَطْنِهِ»[1].

زاد أحمد في فضائل الصحابة: «فَذَهَبَ الْغُلَامُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هِيهِ، أَكُذَبْتَ أَبَا بَكْرٍ»، قَالَ: فَضَحِكَ -أَحْسَبُهُ قَالَ: ضَحِكًا شَدِيدًا- وَقَالَ: «وَيْحَكَ، إِنّ أَبَا بَكْرٍ يَكْرَهُ أَنْ يَدْخُلَ بَطْنَهُ إِلّا طَيّبٌ»[2].

وهكذا سار سلف الأمة على منهج الأنبياء والصحابة الكرام، فكانت أسئلتهم تدل على عظيم الاهتمام بهذا المنهج الأصيل، والركن الأكيد، فهذا أبو حفص ذهب إلى إمام الورعين في زمانه إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل فسأله هذا السؤال العظيم الذي نغفل عنه أجمعون، فقال: قلت لأبي عبد الله: رحمك الله، بم تلين القلوب؟ فأطرق ساعة، ثم رفع رأسه فقال: يا بني، بأكل الحلال.

ثم ذهب بنفس السؤال إلى أبي نصر بشر بن الحارث فقال له: يا أبا نصر بم تلين القلوب؟ قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] قلت:

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»؛ كتاب مناقب الأنصار، بَابُ أَيَّامِ الجَاهِلِيَّةِ (٥ / ٤٣) برقم: (٣٨٤٢).

(٢) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١/ ٤٣٧) برقم: (٦٩٥).

فـإني جئت من عنـد أبي عبد الله. فقال: هيه، إيش قـال لك أبو عبد الله؟ قلت: بأكل الحلال. فقال: جاء بالأصل.

وكذلك ذهب بنفس السـؤال إلى عبد الوهاب بن أبي الحسن فقال له: يا أبا الحسـن، بم تلين القلوب؟ قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعـد: ٢٨]. فقلت: فإني جئت من عند أبي عبـد الله. فاحمرت وجنتاه من الفرح، وقـال لي: إيش قال أبو عبد الله؟ فقلت: قال: عليك بأكل الحلال. فقال: جاءك بالجوهر، جاءك بالجوهر، الأصل كما قال، الأصل كما قال[1].

وبهذا العرض الموجز لأهمية المال الحلال يتبين لنا عظيم أثره في صلاح الفرد المسـلم، وصلاح ذريته من بعده، فالعظمة التي نالها الإمام البخاري لها جـذر طيب، وأصل طاهر مطهر من الحرام وشـبهاته، والنفس الطيبة الصالحـة يخرج الله منها النفوس الطيبة يقـول رب العزة: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٨].

هذا أول أسـباب عظمة البخاري فقد كانت نشأته، ورضاعه وفطامه، ونبات جسـمه من ذلك المال الحلال الذي تحرى والده فيه عظيم التحري

(١) مناقـب الإمـام أحمد، جمـال الدين أبو الفرج عبـد الرحمن بن علي بـن محمد الجوزي (ص:٢٧٠)، ط: دار هجر، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ١٤٠٩هـ

وأعلاه حتى خلصه من كل شبهة فضلا عن حرام هو السبب في المجد الذي ناله والمكانة التي حصلها والمنصب الذي تبوأه في قلوب جميع المسلمين.

لا جرم بارك الله ذلك المـــال الطيب، فانتفع به البخاري أعظم الانتفاع وأفضله، حيث أنفقه كله في خدمة سنة خير المرسلين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان أثر ذلك أن وضع الله له ولكتابه القبول الذين لم يقع لكتاب إلا لكتابه سبحانه.

فإذا كنت تريد أن تكون عظيمًا أو يكون عملك عظيمًا فهاك أول خطوة في طريـــق العظـــماء، وأول سر من أسرارهم، فالزمه تفـــز، واحرص عليه تفلح، وفقنا الله وإياك لأحب الأعمال إليه.

نشأته في حجر أمه:

وكما كان والد البخـــاري في هذه المنزلة من العلم والورع والتقوى فقد كانت أم الحســـن وهي والدة البخاري بمكان من هذه المؤهلات، علمها زوجها من بعد أهلها شريف الصفات وكريم الســـمات وعوضه الله بها من بعد أبيه الذي توفي وهو صغير عوضًا عظيمًا، ولئن رأينا الوالد يغرس النبتة في أرض طيبة ويتركها ويرحل إلى الله تعالى فهذه الأم ســـتكمل الطريق في رعاية نبتتها وتنشئها وترعاها حتى تؤتي أكلها بإذن ربها، وهذا ما كان، لقد نشأ البخاري يتيمًا في حجر أمه الصالحة العابدة، التي تزكت وطابت نفسها بـــأكل الحلال، فاهتمت بابنهـــا ورعته الرعاية التامـــة، واعتنت به العناية

الكاملة، فحفظ القرآن من صغره، وتعلـــم أصول العلم عن الكتاب، ثم بدأ يلتحـــق بحلقات العلم، إلا أن الله ابتلاه بذهـــاب نور عينيه، فحزنت عليه أمه العابدة الصالحة المجتهدة حزنـــاً عظيمًا، فما كان منها وهي المؤمنة الموقنة بقدرة الله إلا أن رفعت شكواها إلى ربها ومولاها، وألحَّتْ في ذلك، وحالها كحال يعقوب عليه الســـلام حين رفع حزنه وبثه شكواه إلى مولاه فقـــال: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [يوســف: ٨٦]. فما كان الله ليضيع لها ذلك الالتجـــاء، ولا ذلك البكاء، فقد نامت في ليلة مـــن الليالي، فإذا برب العزة والجـــلال يريها في منامها خليل الرحمن إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فقال لها: يا هذه، قد رد الله على ابنك بصره لكثرة بكائـــك، وكثرة دعائك. فأصبحت وقد رد الله عليه بصره[1]. وهذه القصة تشـــهد بعظمة باطنها وكبير سرها المدخر بينها وبين ربها، إذ دعته فأجابها، وكربت فتوجهت إليه ففك كربها، وكان رسوله سبحانه إليها خليل الرحمن عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

ولئن دفعنا النور الذي لمسناه في سيرة والده إلى القول: حقيق أن يكون لمثل هذا الوالد ابن هذا شـــأنه، فإنّ هذه الكرامات تدفعنا إلى أن نكرر هذا

(١) هدى الســـاري مقدمة فتح الباري لابن حجر (ص: ٤٧٧)، وانظر: ســـير أعلام النبلاء (١٢/ ٣٩٣).

القول بشـــأن والدته فنقول: حقيق أن يكون لمثل هذه الأمّ ابن هذا شـــأنه، وجديرة هي أن تكون أم البخاري[1].

ومن هذه القصة النفيسة نبعث الأمل في قلب كل أم مكلومة ومفجوعة بولدها بأن لا تيأس من روح الله ورحمته، فألحي على الله، وأكثري البكاء إلى رب الأرض والسماء، ففي لحظة قد تجدين ابنك نورًا من الأنوار ولا تنسي قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْوَالِدِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ**»[2].

ومـــا زالت هذه الأم تهتم بابنها اليافع، ويـــزداد اهتمامها وهي ترى فيه علامات النبوغ والصلاح، فحرصت على أن يحج مبكرًا؛ لكي يتزكى قلبه، وينشرح صدره بهذه العبادة العظيمة، فخرجت به وعمره ست عشرة سنة، ومعـــه أخوه الأكبر، مع ما في الحج في ذلك الزمان من المشـــقة البالغة، من سفر طويل، يستمر شهورًا وفيه من المخاطر العظيمة التي كان يُعدُّ الذاهب فيها مفقودًا، والعائد منها مولودًا.

---

(١) انظـــر: أمهات مؤمنات غـــيرن وجه العالم، ص: ٦٠، أحمد الجوهـــري عبد الجواد، دار المازري - تونس.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٤/ ٢٤٣) رقم (٨٥٨١)، وأبو داود في «سننه»؛ كتاب الصلاة، بَـــابُ الدُّعَاءِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ (١ / ٥٦٣) برقـــم: (١٥٣٦) والترمذي في «جامعه»، بَابُ مَا جَـــاءَ فِي دَعْوَةِ الوَالِدَيْنِ (٣/ ٤٦٩) برقم: (١٩٠٥)، وابن ماجه في «ســـننه» (٥/ ٣٠) برقم: (٣٨٦٢) وقال الترمذي: حديث حسن.

ولقد روى البخاري ذلك بنفسه فعن مُحَمَّدِ بنِ أَبِي حَاتِمٍ، قَالَ: قُلْتُ لأَبِي عَبْدِ الله: كَيْفَ كَانَ بَدْءُ أَمرِكَ؟

قَالَ: أُلْهِمْتُ حِفْظَ الحَدِيْثِ وَأَنَا فِي الكُتَّابِ.

فَقُلْتُ: كم كَانَ سِنُّكَ؟

فَقَالَ: عشرُ سِنِيْنَ، أَوْ أَقَلّ، ثُمَّ خرجْتُ مِنَ الكُتَّابِ بَعْد العشرِ، فَجَعَلْتُ أَخْتَلِفُ إِلَى الدَّاخِلِيِّ وَغَيْرِهِ، فَقَالَ يَوْماً فِيْمَا كَانَ يَقْرَأُ لِلنَّاسِ: سُفْيَانُ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ إِبْرَاهِيْمَ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ أَبَا الزُّبَيْرِ لَمْ يَرْوِ عَنْ إِبْرَاهِيْمَ.

فَانْتَهَرَنِي، فَقُلْتُ لَهُ: ارْجِعْ إِلَى الأَصْلِ فَدَخَلَ فنظَرَ فِيْهِ، ثُمَّ خَرَجَ، فَقَالَ لِي: كَيْفَ هُوَ يَا غُلاَمُ؟

قُلْتُ: هُوَ الزُّبَيْرُ بنُ عَدِيٍّ، عَنْ إِبْرَاهِيْمَ، فَأَخَذَ القلمَ مِنِّي، وَأَحْكَمَ كِتَابَهُ، وَقَالَ: صدقْتَ.

فَقِيْلَ لِلْبُخَارِيِّ: ابْنُ كَمْ كُنْتَ حِيْنَ رددتَ عَلَيْهِ؟

قَالَ: ابْنُ إِحْدَى عَشْرَةَ سَنَةً، فَلَمَّا طَعَنْتُ فِي سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً، كُنْتُ قَدْ حفظتُ كتبَ ابْنِ الْمُبَارَكِ وَوَكِيْعٍ، وَعرفتُ كَلاَمَ هَؤُلاَءِ، ثُمَّ خرجْتُ مَعَ

أُمِّي وَأَخِي أَحْمَدَ إِلَى مَكَّـةَ، فَلَمَّا حَجَجْتُ رَجَعَ أَخِي بِهَا! وَتخلَّفْتُ فِي طلبِ الحَدِيْثِ»[1].

همم كأن الشمس تخطب ودها... والبدر يرسم في سناها أحرفا

أيُّ عظمة في هـذه الأم التي أخرجت لنا مثل هـذا الإمام الهمام الذي تعجز الأمهات أن يأتـين بمثله، وصدق من قـال: وراء كل عظيم امرأة عظيمة.

ورسـالة من محب إلى كل أم فاضلة طيبـة صالحة مباركة تريد أن تخرج للأمة أمثال الإمام البخاري أن تعلم علمًا يقينيًا أن أعظم وظيفة تؤديها المرأة في حياتها هي الاهتمام بأولادها وتربيتهم تربية صالحة وصدق من قال:

الأم مـدرسـة إذا أعددتها ... أعـددت شعبا طيب الأعـراق
الأم روض إن تعهده الحيا ... بـالـري أورق أيـمـا إيـراق
الأم أسـتـاذ الأسـاتـذة الألى ... شغلت مآثرهم مـدى الآفـاق

وحين تكون الأم مثل هذه فلا تعجب أن يكون الطفل مثل البخاري.

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٣٩٣).

ثانيًا- مواقف وقصص عجيبة في نبوغه وإتقانه:

قلَّ إنسان برز في علم من العلوم إلا كان لله فيه سرًّا ومن الله له عطايا ومنحًا، ولقد حبا الله الإمامَ البخاري وأكرمه منذ نعومة أظفاره بنبوغ وبذاكرة فولاذية قلَّ أن توجد في إنسان؛ لأجل حفظ سنة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن عجيب ما نقل من قصص حفظه التي تدل على ذكائه ونباهته، وأنه آية من آيات الله: ما رويناه أنفًا أنه كان ذات يوم وهو غلام صغير في حلقة شيخه الداخلي، وكانت حلقة يحضرها جمع من المحدثين، وبينما هم يتدارسون حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال الداخلي: حدثنا سفيان (يعني ابن عيينة)، عن أبي الزبير (يعني محمد بن مسلم بن تَدْرُس)، عن إبراهيم (النّخعي).

فإذا بالإمام البخاري الذي لم يتجاوز الحادية عشر من عمره يقول بقلب ثابت ولسان منطلق لشيخه الداخلي وحوله المشايخ من المحدثين: شيخنا، إن أبا الزبير لم يَروِ عن إبراهيم.

وهذا التنبيه من أدق أنواع التنبيهات في علم الحديث، وهو أن تعرف أن الشيخ الفلاني لا يروي عن فلان؛ لأنه لا يمكن الجزم بذلك إلا بعد استقراء كامل تام لشيوخ الراوي وتلاميذ المروي عنه، وهو من الصعوبة بمكان في ذلك الزمان.

فنظر الشيخ الداخلي هذا الذي يصوب له، فإذا هو غلام صغير، فانتهره، ولم يَدُرْ في خَلَدِه أن هذا الغلام يصوب مثل هذا الخطأ.

وظن الداخلي أن الغلام سيسكت؛ بل قد يبكي ويعتذر، ولكن المفاجأة العجيبة أن هذا الغلام لم يزده ذلك الانتهار إلا صلابة وثباتاً على تصويبه فقال له: ارجع إلى الأصل.

فلما قال البخاري له ذلك عرف أن الأمر فيه ما فيه، " فَدَخَلَ فنظَرَ فِيْهِ، ثُمَّ خَرَجَ، فَقَالَ لِي: كَيْفَ هُوَ يَا غُلاَمُ؟

قُلْتُ: هُوَ الزُّبَيْرُ بنُ عَدِيٍّ، عَنْ إِبْرَاهِيْمَ، فَأَخَذَ القلمَ مِنِّي، وَأَحْكَمَ كِتَابَهُ، وَقَالَ: صدقْتَ.

فَقِيْلَ لِلْبُخَارِيِّ: ابْنُ كَمْ كُنْتَ حِيْنَ رددتَ عَلَيْهِ؟

قَالَ: ابْنُ إِحْدَى عَشْرَةَ سَنَةً"[1].

ومن عجائب القصص في إتقان أمير المؤمنين في الحديث أنه كان يفصل في النزاع بين المحدثين الكبار الذين يعتبرون من مشايخه وهو ابن ثمان عشرة سنة، وإليك هذه القصة العجيبة مع شيخ من أعظم شيوخه وهو عبد الله بن الزبير الحميدي، يقول البخاري: «وكُنْتُ أَختلِفُ إِلَى الفُقَهَاءِ

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٣٩٣).

بِمَرْوَ وَأَنَا صَبِيٌّ، فَإِذَا جِئْتُ أَســتحِي أَنْ أُسَلِّمَ عَلَيْهِم، فَقَالَ لِي مُؤَدِّبٌ مِنْ أَهلِهَا: كم كتبتَ اليَوْمَ؟

فَقلتُ: اثْنَيْنِ، وَأَرَدْتُ بِذَلِكَ حَدِيْثَيْنِ، فَضَحِكَ مَنْ حَضَرَ المَجْلِسَ.

فَقَالَ شَيْخٌ مِنْهُم: لاَ تضحكُوا، فَلَعَلَّهُ يَضْحَكُ مِنْكُم يَوْماً!!

وقــال: دَخَلْتُ عَلَى الحُمَيْدِيِّ[1]، وَأَنَا ابْنُ ثَمَانِ عَشَرْةَ سَــنَةً، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ آخَرَ اخْتِــلاَفٌ فِي حَدِيْثٍ، فَلَمَّا بَصُرَ بِي الحُمَيْدِيُّ قَــالَ: قَدْ جَاءَ مَنْ يفصِلُ بَيْنَنَا، فَعَرَضَا عَــلَيَّ، فَقضيتُ لِلْحُمِيديِّ عَلَى مَنْ يُخَالِفُهُ، وَلَوْ أَنَّ مُخَالِفَهُ أَصَرَّ عَلَى خِلاَفِهِ، ثُمَّ مَاتَ عَلَى دعوَاهُ، لَمَاتَ كَافِرًا[2].

وقَالَ أَبُو جعفرٍ: سَــمِعْتُ أَبَا عُمَرَ سُــلَيمُ بنُ مُجَاهِدٍ يَقُوْلُ: «كُنْتُ عِنْدَ مُحَمَّدِ بنِ سَــلاَمٍ البِيْكَنْدِيِّ، فَقَالَ: لَوْ جِئْتَ قَبْلُ لرَأَيْتَ صَبِيّاً يَحْفَظُ سَبْعِيْنَ أَلفِ حَدِيْثٍ.

قَالَ: فَخَرَجتُ فِي طَلَبِهِ حَتَّى لَحِقْتُهُ.

(١) هو عبد الله بن الزبير بن عيســى بن أســامة، أبو بكر، الحميدي، الأســدي، المكي، من المحدثين الحفاظ، روى عن ابن عيينة وإبراهيم بن ســعد، ومحمد بن إدريس الشــافعي وغيرهم، وروى عنه البخاري (٧٥) حديثًا، ومســلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي وغيرهم، وذكره ابن حبان في الثقات فقال: «صاحب ســنة، وفضل ودين»، توفي ســنة ٢١٩هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء (١٠/ ٦١٦)، طبقات الشافعية الكبرى (٢/ ١٤٠).

(٢) هدى الســاري مقدمة فتح الباري لابن حجر (ص: ٤٨٣)، وانظر ســير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٠١).

قَالَ: أَنْتَ الَّذِي يَقُوْلُ: إِنِّي أَحْفَظُ سَبْعِيْنَ أَلفَ حَدِيْثٍ؟

قَالَ: نَعَــمْ، وَأَكْثَر، وَلاَ أَجيئُــكَ بِحَدِيْثٍ مِنَ الصَّحَابَــةِ وَالتَّابِعِيْنَ إِلاَّ عَرَّفْتُكَ مولِدَ أَكْثَرِهِم وَوَفَاتَهُم وَمسَاكنِهِم، وَلَسْتُ أَروِي حَدِيْثاً مِنْ حَدِيْثِ الصَّحَابَةِ أَوِ التَّابِعِيْنَ إِلاَّ وَلِي مِنْ ذَلِــكَ أَصْلٌ أَحْفَظُهُ حِفْظاً عَنْ كِتَابِ الله، وَسُنَّةِ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[1].

بل بلغ من إتقانه ونبوغه وشــدة حفظه أن مشــايخه يهابون أن يتكلموا بحضرته، ويخافون أشــد الخوف من الخطأ بين يديه، يقول أبو جعفر محمد بن أبي حاتم: ســمعت بعض أصحابي يقول: «كُنْتُ عِنْدَ مُحَمَّدِ بنِ سَــلاَم، فَدَخَلَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بنُ إِسْــمَاعِيْلَ، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ مُحَمَّدُ بنُ سَلاَم: كُلَّمَا دَخَلَ عليَّ هَذَا الصَّبِيُّ تحيَّرْتُ، وَألبسَ عليَّ أَمــر الحَدِيْثِ وَغَيْرِهِ، وَلاَ أَزَالُ خَائِفاً مَا لَمْ يَخْرُجْ»[2].

فيا ترى ما سبب خوفهم وخشيتهم ؟

للجواب على هذا الســؤال ينبغي التذكير بأنه كان من حرص المحدثين على سنة خير المرسلين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقيِّموا ويختبروا كل من يتصدر لرواية الحديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويســبروا حياته إلى وفاته، ويراجعوا

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤١٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤١٧:٤١٦).

مروياتــه، فإذا وجــدوا المحدث يخطئ يحكمون عليــه بعبارات في منتهى الدقة، تبين درجته من الحفظ والإتقــان والضعف، ومن تلك العبارات: ضعيف، متروك، صدوق يهم، له أوهام، يخطئ، يخطئ كثيرًا، أو له مناكر، أو غــير ذلك، وكل مصطلح من هذه المصطلحــات فيه من الدقة والعدل والضبط والخوف من الله منتهاه، فكانوا يخافون أن يدخل عليهم من أمثال البخاري فيصدر حكمه فيهم.

ما للبخاري نظيرٌ في جلالته ... ومثله حافظ ما أمسك القلما
قد كان وهْو صغيرُ السِّنِّ مجتهدًا ... وكان ذا هِمَّةٍ قد فاقتِ الهمما
كأنَّما صــدره بحــرٌ يموجُ ذكا ... كأنَّما ذِهنُه غيثٌ قد انسجما[1]

ثالثًا- رحلاته:

من أعظم الخطوات التي يخطوها المســلم تلك الخطوات التي تكون في سبيل خدمة هذا الدين، ومن أعظم أبواب الدين خدمة سنة خير المرسلين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمحدثون أكثــر الناس حرصًا على الرحلة في طلبها وتتبعها، وقد ســطر لنا التاريخ بمداد من ذهب عظيم بذلهم وتضحياتهم حتى إنك لتظن أنها ضربٌ من الخيال، فقد أنفقوا الأموال، وتركوا الأهل والأوطان،

(١) تحفة السامع والقاري في ختم صحيح البخاري، المؤلف: محمد بن محمد بن محمد بن عبد القادر الجعفري الحنبلي، وانظر الحطة في ذكر الصحاح الســتة، لصديق حسن خان (ص: ٣١٨)، ط: دار الجيل، ت: علي حسن الحلبي.

وتعرضوا لأعظم المخاطر والأهوال، ولم يكن ذلك يثنيهم عن قصدهم، أو يوهنهم عن هدفهم، بل كانوا يجدون بذلك أعظم السعادة.

ومن عجيب تضحياتهم أنهم كانوا يقطعون المفاوز والقفار من أجل حديث واحد ومن ذلك قصة جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث يقول: بَلَغَنِي حَدِيثٌ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ أَسْمَعْهُ مِنْهُ، قَالَ: فاشتريت بَعِيرًا، فَشَدَدْتُ عَلَيْهِ رَحْلِي، فَسِرْتُ إِلَيْهِ شَهْرًا حَتَّى أَتَيْتُ الشَّامَ، فَإِذَا هُوَ عَبْدُ الله بْنُ أُنَيْسٍ الْأَنْصَارِيُّ، فَأَرْسَلْتُ إِلَيْهِ أَنَّ جَابِرًا عَلَى الْبَابِ، قَالَ: فَرَجَعَ إِلَيَّ الرَّسُولُ، فَقَالَ: جَابِرُ بْنُ عَبْدِ الله؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَأَتَاهُ فَأَخْبَرَهُ، فَقَامَ يَطَأُ ثَوْبَهُ حَتَّى خَرَجَ إِلَيَّ فَاعْتَنَقَنِي وَاعْتَنَقْتُهُ، قَالَ: فَقُلْتُ: حَدِيث بَلَغَنِي أَنَّكَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَظَالِمِ، لَمْ أَسْمَعْهُ، فَخَشِيتُ أَنْ أَمُوتَ أَوْ تَمُوتَ قَبْلَ أَنْ أَسْمَعَهُ"[1].

(١) سَمِعْتَ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «يَحْشُرُ اللهُ الْعِبَادَ - أَوْ قَالَ: يَحْشُرُ اللهُ النَّاسَ - قَالَ: وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى الشَّامِ- عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا، قُلْتُ: مَا بُهْمًا ؟ قَالَ: لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، قَالَ: فَيُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ: أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الدَّيَّانُ، لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَأَحَدٌ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَطْلُبُهُ بِمَظْلَمَةٍ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَدْخُلُ النَّارَ وَأَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَطْلُبُهُ بِمَظْلَمَةٍ، حَتَّى اللَّطْمَةُ، قَالَ: قُلْنَا: كَيْفَ هُوَ وَإِنَّا إِنَّمَا نَأْتِي اللهَ عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا ؟ قَالَ: بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ». أخرجه أحمد في «مسنده» (٦ / ٣٤٧٠) برقم: (١٦٢٨٨) والطبراني في «الكبير» (١٤ / ٢٧٥) برقم: (١٤٩١٤) والحاكم في «مستدركه» (٢ / ٤٣٧) برقم: (٣٦٥٩)، وقال: «صحيح الإسناد»، وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٥١).

لا تعرضن بذكرنا مع ذكرهم ليس الصحيح إذا مشى كالمقعد

وقد سطر لنا الخطيب البغدادي قصص أولئك الأئمة الأفذاذ من المحدثين الذين سافروا وقطعوا مئات الأميال من أجل حديث واحد فقط، في كتاب ماتع سماه (الرحلة في طلب الحديث الواحد).

ألا وإن من أبرز أولئك الرجال الأفذاذ أميرُ المؤمنين في الحديث أبو عبد الله البخاري، فقد اشتملت رحلاته على أسرار العظمة من جوانب متعددة، ومن ذلك:

السر الأول- الرحلة إلى أكثر بلاد الإسلام:

علا صيت محمد بن إسماعيل وذاعت شهرته في الحلقات والدروس وعرفه الشيوخ والمدرسون، ولم يبق شيخ ولا مدرس في البلد إلا وأخذ ((محمد)) كل ما عنده من علم بالصبر والمصابرة والجد والمذاكرة.. وكذا فعل مع شيوخ البلاد المجاورة وكبار مدرسيها في المدارس والمجامع المرموقة والجوامع العتيقة واستطاع وهو ابن اثنتي عشرة سنة فقط أن يؤلِّف كتابًا عن «قضايا الصحابة والتابعين»، وعرضه على شيوخه فاستحسنوه وأشادوا به. وكان مدرسوه وشيوخه ممن عرفوا بالدقة والضبط والإتقان والرسوخ في العلم، بل إن كثيرًا من أئمة علم الحديث في هذه البلاد كانوا يهابون حضور ((محمد)) في دروسهم ويترددون في الرواية خوفًا من أن

يقع منهم خطأ أو وَهْمٌ أثناء حضوره مجالسهم وكانوا يعرضون عليه كتبهم للتصحيح.

حدث مرة أن كان في أحد المجالس عند بعض شيوخه فأخرج الشيخ كتابه وطلب إلى محمد أن ينظر فيه ويبين له ما فيها من خطأ وأن يصوبه، وكان بعض أصحاب الشيخ عنده حاضرًا فلما سمع ذلك قال له: من هذا الفتى حتى تقول له هذا وأنت من أئمة العلم في هذا العصر؟ فقال الشيخ لصاحبه: هذا الذي ليس له مثله.

وكان محمد خلال ذلك قد ناهز السادسة عشرة من العمر فجمع خلالها قدرًا كبيرًا جدًّا من الأحاديث.. ليس هذا فحسب، لقد أغرم ((محمد)) بحفظ الأحاديث وما زالت هذه الرغبة تنمو وتزداد فيه، وأيضًا كان حريصًا على تمييز الأحاديث الصحيحة من غيرها، ومعرفة علل الحديث والاطلاع على أحوال الرواة ومعرفة عدالتهم وضبطهم وأمانتهم وصدقهم ومعيشتهم ومسكنهم ومولدهم ووفياتهم ولقائهم فيما بينهم، ومقارنة الأسانيد بعضها ببعض، ومعرفة اتصالها وانقطاعها، واستنباط المسائل الفقهية وغيرها من الأحاديث ومقارنتها بالآيات القرآنية، لقد كان مغرمًا بهذا كله، ولا يمر عليه ليل أو ينقضي نهار إلا وهو يتوسع في ذلك أشد التوسع، وكانت هذه الأفكار تتسع وتترسخ في نفسه وتتقوَّى في قلبه..

ثم إنَّ ((محمدًا)) لم يكتف بعلوم الحديث فقط، بل طلب الفقه كما طلب الحديث وأصبح على علم كامل بأقوال الفقهاء ومسائلهم الاجتهادية.

كل هذا ومحمد لم يخرج من بلادهم القريبة ولم يرحل إلى غيرها من البلاد البعيدة ثم اشتاقت نفسه إلى مزيد من العلم ففكَّر في السفر إلى عواصم الإسلام الكبرى مكة والمدينة وبغداد وغيرها ليحصل مزيدًا من العلم بحديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا ما كان، وهو سر من أسرار عظمته[1].

نعم، إن من أسرار عظمة البخاري في رحلاته أنه طاف أكثر بلاد الإسلام في ذلك الزمان وفي سن مبكرة، في حين أن كثيرًا من المحدثين لم تتيسر له مثل تلك الرحلات؛ ولعل ذلك بسبب ما توفر له من المال من والده، وهمته العالية وحرصه الكبير على طلب الحديث وعلو أسانيده، وقد تنقل الإمام البخاري في خراسان قبل أن يسافر خارج بلده؛ ولكن لم تسفعنا المصادر بعدد رحلاته، إلا أنه كان من عادتهم أن لا يبدأ المحدث رحلته حتى يأخذ عن أهل بلده ومن حوله، وكانت أُولى رحلاته الخارجية عن بلاده كما هي موضحة في الجدول[2]:

(١) انظر: قدوتي، فصل: شمس الأئمة محمد بن إسماعيل البخاري، أحمد الجوهري عبد الجواد، دار أصول للنشر والتوزيع.

(٢) أنظر: خريطة سامي المغلوث في كتابه أطلس الفرق والمذاهب في التاريخ الإسلامي

المدينة	المسافة بالكيلو متر	الزمن
بخارى ----- بلخ	600	12 يوما
بلخ ------ مرو	800	16 يوما
مرو-----نيسابور	140	3 أيام
نيسابور---- الري	760	15 يوما
الري ---- واسط	985	30 يوما
واسط ---- البصرة	365	7 أيام
البصرة---- الكوفة	390	8 أيام
الكوفة---- بغداد	164	4 أيام
بغداد---المدينة النبوية	1530	45 يوما
المدينة ------ مكة	435	8 أيام
مكة ------- جدة	70	1 أيام
جدة ------ عيذاب	120	3 أيام
عيذاب ----- الفسطاط	1080	30 يوما
الفسطاط-----عسقلان	500	15 يوما
عسقلان ---- قيسرية	118	3 أيام
قيسرية----- دمشق	400	8 أيام
دمشق -----بغداد	915	30 يوما

وهـــذه بعض الرحلات، وإلا فإنه قد رحـــل للبصرة خمس مرات، ورحل كذلـــك إلى بغداد، ودخلها أكثر من ثمان مرات، ومن ثَم رحل إلى الجزيرة.

وهي الواقعة بين نهري دجلة والفرات وأهم مدنها حران[1]، والرها[2]، والرقة[3]، وأخذ عن محدثيها، ثم رجع بعد هذا التطواف بين بلاد الإسلام إلى خراسان، وبدأ يتنقل من مدينة إلى مدينة، وينشر حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهكذا كان المحدثون يطوفون الدنيا، ويمكثون عشرات السنوات، ثم يرجعون إلى أهليهم ومدنهم، ومن عجائب قصص الرحالين في طلب سنة خير المرسلين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محدث الإسلام الحافظ ابن منده حيث رحل في طلب العلم وعمره عشرون سنة، ورجع وعمره خمس وستون سنة، وكانت رحلته خمسًا وأربعين سنة.

(١) حران: هي مدينة عظيمة مشهورة، وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرّقّة ١٠٠ كم، وتقع اليوم جنوب تركيا في حدودها مع سورية. ينظر: معجم البلدان للحموي ٢/ ٢٣٥، رابط إلكتروني:
https://mawdoo٣.com/%D٨%AA%D٩%٨A%D٩%٨٦_%D٨%AD%D٨%B١%D٨%A٧%D٩%٨٢%B٩_%D٨%AD%D٨%D٨%AF%D٩%٨٨%D٨%B٩%D٨%B٧%D٩%٨٩.

(٢) الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام، متصلة بحران. ينظر: معجم البلدان للحموي ٣/ ١٠٦.

(٣) الرقة: من المدن المشهورة، في شرق الشام، على الجانب الشرقي من نهر الفرات، وهي إحدى محافظات الجمهورية العربية السورية وهي معروفة بهذا الاسم إلى وقتنا الحالي. يُنظر: معجم البلدان، لأبي ياقوت الحموي، (٣/ ٥٩). وأطلس العالم، الجمهورية العربية السورية، ص: (٣٩).

قال الذهبي: «وَلَمْ أَعلم أَحداً كَانَ أَوسع رِحلةً مِنْهُ، وَلاَ أَكْثَر حَدِيْثاً مِنْهُ مَعَ الحِفْظ وَالثِّقَة، فَبَلَغَنَا أَنَّ عِدَّة شُيُوْخه أَلفٌ وَسَبْعُ مائَةِ شَيْخٍ[1].

وكذلك يعقوب بن سفيان فقد قال قَالَ الحَافِظُ أَبُو إِسْحَاقَ بنُ حَمْزَةَ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُوْلُ: «كُنْتُ رَحَلْتُ إِلَى يَعْقُوْبَ بنِ سُفْيَان، فَبَقَيْتُ عِنْدَهُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ، فَقُلْتُ لَهُ: طَالَ مُقَامِي عِنْدَكَ، وَلِي وَالِدَةٌ.

فَقَالَ: رَدَدْتُ البَابَ عَلَى وَالِدَتِي ثَلاَثِيْنَ سَنَةً»[2].

أي أنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أقام في الرحلة لطلب الحديث ثلاثين سنة.

السر الثاني- تكرار رحلاته للمدينة الواحدة:

ومما تميز به البخاري أنه لا يكتفي بزيارة المدينة مرة واحدة؛ بل إنه يزورها عدة مرات كما فعل في بغداد، فقد رحل إليها ثمان مرات، وكذلك البصرة فقد رحل إليها أربع مرات، والمدينة ومكة وغيرها من بلدان الإسلام، وذلك لجملة من الاعتبارات، منها التأكد من ثقة الرواة، ثم الأخذ عن شيوخ آخرين لم يدركهم في الرحلة الأولى.

(١) سير أعلام النبلاء (١٧/ ٣٠).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٣/ ١٨١).

روى عنه ذلك عَبْدَ الرَّحْمَنِ بنَ مُحَمَّدٍ البُخَارِيَّ قال: سَـمِعْتُ مُحَمَّدَ بنَ إِسْـمَاعِيْلَ يَقُوْلُ: «لَقِيْتُ أَكْثَرَ مِنْ أَلفِ رَجُلٍ أَهْلِ الحِجَازِ وَالعِرَاقِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ، لَقِيتُهُم كَرَّاتٍ، أَهْلِ الشَّـامِ وَمِصْرَ وَالجَزِيْرَةِ مرَّتينِ، وَأَهْلِ البَصْرَةِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، وَبَالحِجَازِ سِـتَّة أَعْوَامٍ، وَلاَ أُحْصِي كم دَخَلْتُ الكُوْفَةَ وَبَغْدَادَ مَعَ مُحَدِّثِي خُرَاسَانَ، مِنْهُمُ: المَكِّيُّ بنُ إِبْرَاهِيْمَ، وَيَحْيَى بنُ يَحْيَى، وَابْنُ شَقِيقٍ، وَقُتَيْبَةُ، وَشِهَابُ بنُ معمرٍ، وَبَالشَّامِ: الفِرْيَابِيُّ، وَأَبَا مُسْهِرٍ، وَأَبَا المُغِيْرَةِ، وَأَبَا اليَمَانِ، وَسَمَّى خلقاً.

ثُمَّ قَـالَ: فَمَا رَأَيْتُ وَاحِداً مِنْهُم يَخْتلِف فِي هَذِهِ الأَشْـيَاءِ أَنَّ الدِّيْنَ قَوْلٌ وَعملٌ، وَأَنَّ القُرْآنَ كَلاَمُ الله»[1].

❊ ❊ ❊

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٠٨:٤٠٧).

صفات أهل الحديث وأحوالهم

وإليك وصف أهل الحديث من خبير بهم؛ حتى تعلم من هم نقلة حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول مَنْصُورِ بْنِ عَمَّارٍ: «الْحَمْدُ للهِ الْمُنْعِمُ الْمَنَّانُ، مُظْهِرُ الْإِسْلَامَ عَلَى كُلِّ الْأَدْيَانِ....، وَوَكَلَ بِالْآثَارِ الْمُفَسِّرَةِ لِلْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ الْقَوِيَّةِ الْأَرْكَانِ، عِصَابَةً مُنْتَخِبَةً، وَفَّقَهُمْ لِطَلَابِهَا وَكِتَابِهَا، وَقَوَّاهُمْ عَلَى رِعَايَتِهَا وَحِرَاسَتِهَا، وَحَبَّبَ إِلَيْهِمْ قِرَاءَتَهَا وَدِرَاسَتَهَا، وَهَوَّنَ عَلَيْهِمُ الدَّأَبَ وَالْكَلَالَ، وَالْحِلَّ وَالتِّرْحَالَ، وَبَذْلَ النَّفْسِ مَعَ الْأَمْوَالِ، وَرُكُوبَ الْمَخُوفِ مِنَ الْأَهْوَالِ، فَهُمْ يَرْحَلُونَ مِنْ بِلَادٍ إِلَى بِلَادٍ، خَائِضِينَ فِي الْعِلْمِ كُلَّ وَادٍ، شُعْثَ الرُّءُوسِ، خُلْقَانَ الثِّيَابِ، خُمُصَ الْبُطُونِ، ذُبُلَ الشِّفَاهِ، شُحْبَ الْأَلْوَانِ، نُحْلَ الْأَبْدَانِ، قَدْ جَعَلُوا لَهُمْ هَمًّا وَاحِدًا، وَرَضُوا بِالْعِلْمِ دَلِيلًا وَرَائِدًا لَا يَقْطَعُهُمْ عَنْهُ جُوعٌ وَلَا ظَمَأٌ، وَلَا يَمَلُّهُمْ مِنْهُ صَيْفٌ وَلَا شِتَاءٌ، مَائِزِينَ الْأَثَرَ: صَحِيحَهُ مِنْ سَقِيمِهِ، وَقَوِيَّهُ مِنْ ضَعِيفِهِ، بِأَلْبَابٍ حَازِمَةٍ، وَآرَاءٍ ثَاقِبَةٍ، وَقُلُوبٍ لِلْحَقِّ وَاعِيَةٍ، فَأَمِنَتْ تَمْوِيهِ الْمُمَوِّهِينَ، وَاخْتِرَاعَ الْمُلْحِدِينَ، وَافْتِرَاءَ الْكَاذِبِينَ، فَلَوْ رَأَيْتَهُمْ فِي لَيْلِهِمْ، وَقَدِ انْتَصَبُوا لِنَسْخِ مَا سَمِعُوا، وَتَصْحِيحِ مَا جَمَعُوا، هَاجِرِينَ الْفُرُشَ الْوَطِيَّ، وَالْمَضْجَعَ الشَّهِيَّ، قَدْ غَشِيَهُمُ النُّعَاسُ فَأَنَامَهُمْ، وَتَسَاقَطَتْ مِنْ أَكُفِّهِمْ أَقْلَامُهُمْ، فَانْتَبَهُوا مَذْعُورِينَ قَدْ أَوْجَعَ الْكَدُّ أَصْلَابَهُمْ، وَتِيهُ السَّهَرِ أَلْبَابَهُمْ،...لَعَلِمْتَ أَنَّهُمْ

حَرَسُ الْإِسْــلَام وَخُــزَّانُ الْمِلكِ الْعَــلَّام، فَإِذَا قَضَوْا مِنْ بَعْــضِ مَا رَامُوا أَوْطَارَهُمْ، انْصَرَفُوا قَاصِدِينَ دِيَارَهُمْ، فَلَزِمُوا الْمَسَــاجِدَ، وَعَمَّرُوا الْمَشَاهِدَ، لَابِسِــينَ ثَوْبَ الْخُضُوعِ، مُسَالِمِينَ وَمُسْلِمِينَ، يَمْشُــونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا، لَا يُــؤْذُونَ جَارًا، وَلَا يُقَارِفُونَ عَارًا، حَتَّــى إِذَا زَاغَ زَائِغٌ، أَوْ مَرَقَ فِي الدِّينِ مَارِقٌ، خَرَجُوا خُرُوجَ الْأُسدِ مِنَ الْآجَامِ، يُنَاضِلُونَ عَنْ مَعَالِمِ الْإِسْلَامِ»[1].

هَــل الدِّيــنُ إلَّا مــاروتــه أَكــابــرٌ
لنا نَقَلوا الأَخبارَ عن طَيِّبٍ خُبرا

وأدَّوا أحاديث الرَّسُول مصونةً عن الزَّيف
والتَّصحيف فاستوجبوا الشُّكرا

وإنَّ البُــخــاريَّ الإمــامَ لجـامـعٌ
بجـامـعـهِ منها اليـواقـيـتَ والدُّرَّا

على مَــفْــرِقِ الإســلام تــاجٌ مُــرَصَّـعٌ
أضــاءَ بــه شمسًا ونــارَ بــه بَــدرًا

تَــصــانــيــفُــهُ نَــوْرٌ ونُــوْرٌ لناظرٍ
فَقَد أَشْرَقَــتْ زُهْــرًا وقد أينَعَت زَهْرا

(١) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، للرامهرمزي (ص: ٢٢٠).

وكَم بَـذَلَ النَّفْسَ المَصُونةَ جاهدًا
فـجـاز لهـا بحـرًا وجَـابَ لهـا بَـرا
فـطـورًا عِـراقـيًّـا وطـورًا يمانيًا
وطـورًا حِـجَـازيًّـا وطـورًا أتى مصرا
إلى أن حَوى منها الصَّحيحَ صَحِيفَةً
فـوافى كتابًا قد غدا الآيـةَ الكُبرى

اللهم اجز الإمـام البخاري وجميع علماء الإسـلام خير الجزاء، واخز المناوئين والطاعنين في أئمة الإسـلام الدين، واجعلنا جميعًا من أنصار سنة خير المرسلين، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، آمين.

رابعًا- شيوخه وتلامذته وأسرار ذلك:

من أسرار عظمة العظـماء أخذهم عن العظماء وأخـذ العظماء عنهم، والواقع أكبر شـاهد على ذلك؛ فالذين يتخرجون مـن الجامعات العالمية العريقة لهم شأن مرموق، ومكانة سـامية، ومناصب عالية؛ لما يتلقونه من معارف دقيقة من ذوي خبرات طويلة وبوسائل متعددة.

وقد حرص أمير المؤمنـين في الحديث على الأخذ عن أعظم عظماء هذا الفن، حتى بلغ مشايخه الذين أخذ عنهم ألفًا وثمانين محدثًا، وبعبارة تقريبية:

أخذ عن ألف وثمانين بروفسور، وكل بروفسور يشهد له بأنه إمام من أئمة الدنيا، فماذا ستكون عظمته؟ وماذا ستكون منزلته؟:

أما شيوخ الإمام البخاري:

فأولهم ورأسهم إمام أهل السنة والجماعة: أحمد بن حنبل[1] صاحب المسند الذي قال عنه: "ما أخرجت خراسان مثل محمد بن إسماعيل»[2].

وإمام الائمة في العلل: علي بن المديني[3]، قال البخاري: «مَا اسْتَصغَرْتُ نَفْسِي عِنْدَ أَحَدٍ، إِلاَّ عِنْدَ عَلِيِّ بنِ المَدِيْنِيِّ»[4].

(١) هو أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، أبو عبد الله حافظ الدنيا، وإمام المحدثين، وإمام المذهب الحنبلي، قال الذهبي: «هو الإمام حقًا، وشيخ الإسلام صدقًا»، امتحن في أيام المأمون والمعتصم ليقول بخلق القرآن فأبى وأظهر الله على يديه مذهب أهل السنة، من تصانيفه: «المسند»، و«المسائل»، وغيرها، توفي سنة ٢٤١هـ. ينظر: طبقات الحنابلة لأبي يعلى ص: ٣، سير أعلام النبلاء ١١/ ١٧٧.

(٢) الجامع لعلوم الإمام أحمد ١٨/ ٥٤٩.

(٣) هو علي بن عبد الله بن جعفر السعدي، أبو الحسن، ابن المديني، شيخ إمام حجة، كان من أعلم الناس بحديث رسول الله ﷺ، وإليه المنتهى في معرفة علل الحديث، مع كمال المعرفة بنقد الرجال، وسعة الحفظ، والتبحر في هذا الشأن، من تصانيفه: «المسند في الحديث»، و«تفسير غريب الحديث»، توفي سنة (٢٣٤هـ). ينظر: طبقات الشافعية لابن السبكي ١/ ٢٦٦، سير أعلام النبلاء ١١/ ٤٢.

(٤) (١١/ ٤٦).

وإمام الدنيا إسحاق ابن راهويه[1] صاحب المسند.

ومن عظمته في أخذه عن مشـــايخه حتى بلغت بـــه هذه المنزلة جملة من الأسرار وهي:

السر الأول- الاستقصاء في أخذ حديث المحدث:

سُئل عَبْدَ الله بنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّمَرْقَنْدِيَّ عَنْ مُحَمَّدُ بنُ إِسْمَاعِيْلَ، فَقَالَ: «مُحَمَّدُ بنُ إِسْمَاعِيْلَ أَعْلَمُنَا وَأَفْقَهُنَا وَأَغْوَصُنَا، وَأَكْثَرُنَا طلبًا.

وَقَالَ: أبو سَعِيْدٍ الْمُؤَدِّبَ سَمِعْتُ عَبْدَ الله بنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ يَقُوْلُ: «لَمْ يَكُنْ يُشْبِهُ طلبُ مُحَمَّدٍ لِلْحَدِيْثِ طلبَنَا، كَانَ إِذَا نظَرَ فِي حَدِيْثِ رَجُلٍ أَنْزَفَهُ»[2].

أي: أنه يأخذ جميع أحاديث ذلك المحدث حتى لو اســـتدعى ذلك أن يجلس شـــهورًا، ولذلك قال العَبَّاسَ الدُّوْرِيَّ: «مَا رَأَيْتُ أَحَداً يُحْسِنُ طلبَ الحَدِيْثِ مِثْلَ مُحَمَّدِ بنِ إِسْمَاعِيْلَ، كَانَ لاَ يدعُ أَصْلاً وَلاَ فرعاً إِلاَّ قَلَعَهُ»[3].

(١) هو إســـحاق بن إبراهيم بن مخلد من بني حنظلة من تميم عالم خراسان في عصره، اجتمع له الفقه والحديث والحفظ والصدق والورع والزهد اســـتوطن نيســـابور وتوفي بها سنة (٢٣٨هـ). ينظر: طبقات الفقهاء للشيرازي ص:٩٤ سير أعلام النبلاء ١١/ ٣٧٢.

(٢) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٢٧).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٠٦).

السر الثاني- موسوعيته في أخذه عن الشيوخ:

كان موسوعة في أخذه عن الشيوخ، فقد بلغ عدد شيوخه أكثر من ألف وثمانين محدثًا، وكان هؤلاء المحدثون من أجل علماء الحديث، وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وعلي بن المديني.

قال البخاري: «لَقِيْتُ أَكْثَرَ مِنْ أَلفِ رَجُلٍ أَهْلِ الحِجَازِ وَالعِرَاقِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ، لَقِيتُهُم كَرَّاتٍ، أَهْلِ الشَّـــامِ وَمِصْرَ وَالجَزِيْرَةِ مرَّتينِ، وَأَهْلِ البَصْرَةِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، وَبَالحِجَازِ سِـــتَّة أَعْوَامٍ، وَلاَ أُحْصِي كم دَخَلْتُ الكُوْفَةَ وَبَغْدَادَ مَعَ مُحَدِّثِي خُرَاسَانَ، مِنْهُمُ: المَكِّيُّ بنُ إِبْرَاهِيْمَ، وَيَحْيَى بنُ يَحْيَى، وَابْنُ شَقِيقٍ، وَقُتَيْبَةُ، وَشِهَابُ بنُ معمرٍ، وَبَالشَّامِ: الفِرْيَابِيُّ، وَأَبَا مُسْهِرٍ، وَأَبَا المُغِيْرَةِ، وَأَبَا اليَمَانِ، وَسَمَّى خلقًا»[٤].

السر الثالث- فحصه لمن يأخذ عنه فحصًا دقيقًا:

وهذا سر عظيم قل من يتصف به، فقد أخذ بأعلى معايير الدقة والجودة في معرفة شيوخه معرفة تامة، يقول هو عن نفسه: «لَمْ تكن كِتَابتِي لِلْحَدِيْثِ كَمَا كَتَبَ هَؤُلاَءِ.

(٤) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٠٨:٤٠٧).

كُنْتُ إِذَا كَتَبْتُ عَنْ رجلٍ سَأَلْتُهُ عَنِ اسْمِهِ وَكُنْيَتِهِ وَنِسْبَتِهِ وَحَمْلِهِ الحَدِيْثَ، إِنْ كَانَ الرَّجُلُ فَهِمًا.

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ سَأَلْتُهُ أَنْ يُخْرِجَ إِلَيَّ أَصْلَهُ وَنُسخَتَهُ.

فَأَمَّا الآخرُونَ لاَ يُبالُونَ مَا يَكْتُبُونَ، وَكَيْفَ يَكْتُبُونَ»[1].

وأما تلاميذ الإمام البخاري:

فإن من دلائل عظمة أي عظيم تتلمذ الجهابذة والعظماء على يديه، فهي أكبر دلالة على عظمته، إذ لو لم يكن عظيمًا لما جلس إليه العظماء، وهي من بديهيات النظر[2]، وقد كان تلامذته من أئمة الدنيا في الحديث الذين بلغوا أوج الشرف وقمة الشهرة، وهم من أركان الدين في نقلهم لسنة خير المرسلين، وعلى روايتهم مدار علم الحديث، وعددهم لا يحصيه إلا الله، فقد كانوا يجتمعون في بعض مجالسه أكثر من عشرين ألف محدث، ومن أبرزهم:

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٠٦).

(٢) فعندما ترى أستاذًا يجلس في حلقته عشرات الدكاترة تشهد من دون أن تسمع شيئًا من علمه أنه على علم عظيم؛ لأنك ستقول: لو لم يكن عالمًا لما جلس إليه هؤلاء. خاصة أنه لم يكن في زمانهم مناصب ووظائف تنال من هذه المجالس.

المبحث الأول ترجمة الإمام البخاري

١- الإمام مسلم بن الحجاج صاحب الصحيح[١]. قال عنه مسلمة بن قاسم: (ثقة جليل القدر من الأئمة).

وكان يقول عن البخاري: «دَعْنِي أُقَبِّلْ رجليكَ يَا أُسْتَاذَ الأُسْتَاذِين، وَسَيِّدَ الْمُحَدِّثِيْنَ، وَطبيبَ الحَدِيْثِ فِي عِلَلِهِ»[٢].

٢- والإمام أبو عبدالرحمن النسائي صاحب السنن[٣]، قال أبو الحسين بن المظفر: «سمعت مشايخنا بمصر يعترفون لأبي عبد الرحمن النسائي بالتقدم والامامة، ويصفون من اجتهاده في العبادة بالليل والنهار ومواظبته على الحج والجهاد وإقامته السنن المأثورة واحترازه عن مجالس السلطان وإن ذلك لم يزل دأبه إلى أن استشهد»[٤].

(١) هو مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري، الإمام الكبير، الحافظ المجود، أحد أعلام أئمة الدنيا، ومن أوسعهم شهرة، وقد لازم البخاري وحذا حذوه، أشهر كتبه «صحيح مسلم»، وتوفي سنة (٢٦١هـ). ينظر: تاريخ دمشق ٥٨/ ٨٥، تذكرة الحفاظ ٢/ ١٥٠.

(٢) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٣٢).

(٣) هو أحمد بن علي بن شعيب، النسائي، الإمام، الحافظ، المحدث، صاحب السنن، ناقد الحديث، من تصانيفه: «السنن الكبرى»؛ و«المجتبى» وهو السنن الصغرى، و«الضعفاء» وتوفي سنة (٣٠٣هـ). ينظر: وفيات الأعيان ١/ ٧٧ تذكرة الحفاظ ٢ / ٢٤١.

(٤) تهذيب التهذيب ١/ ٣٧.

٣- والإمام أبو عيسى الترمذي[١] صاحب الجامع، قال الحاكم: سَمِعْتُ عُمَرَ بنَ عَلَّكَ يَقُوْلُ: مَاتَ مُحَمَّدُ بنُ إِسْمَاعِيْلَ وَلَمْ يخلِّفْ بِخُرَاسَانَ مِثْلَ أَبِي عِيْسَى التِّرْمِذِيِّ فِي العِلْمِ وَالزُّهْدِ وَالوَرَعِ، بَكَى حَتَّى عَمِيَ»[٢].

من أسرار عظمة الإمام البخاري بذله وتضحيته

من أسباب عظمة علماء الحديث ما بذلوه وضحوا به من أجل جمع حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمنهم من باع داره، وضحى بماله في طلب الحديث، ولهم في ذلك قصص عجيبة تدل على الحرص على جمع الحديث، ونصرة سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى قال ابْنُ عُيَيْنَةَ: سَمِعْتُ شُعْبَةَ يَقُوْلُ: «**مَنْ طَلَبَ الحَدِيْثَ أَفْلَسَ، بِعْتُ طَسْتَ أُمِّي بِسَبْعَةِ دَنَانِيْرَ**»[٣].

(١) هو محمد بن عيسى بن سورة السلمي الترمذي، أبو عيسى، من كبار أئمة علماء الحديث وحفاظه، وكان يضرب به المثل في الحفظ من تصانيفه: «الجامع الكبير» المعروف بسنن الترمذي، توفي سنة (٢٧٩هـ). ينظر: وفيات الأعيان ٤/ ٢٧٨ طبقات الحفاظ للسيوطي ص:٢٨٢.

(٢) ونقل أبو سعد الإدريسي بإسناد له، أن أبا عيسى قال: كنت في طريق مكة فكتبت جزأين من حديث شيخ، فوجدته فسألته، وأنا أظن أن الجزأين معي، فسألته، فأجابني، فإذا معي جزآن بياض، فبقي يقرأ علي من لفظه، فنظر، فرأى في يدي ورقا بياضا، فقال: أما تستحي مني؟ فأعلمته بأمري، وقلت: أحفظه كله. قال: اقرأ. فقرأته عليه، فلم يصدقني، وقال: استظهرت قبل أن تجيء؟ فقلت: حدثني بغيره. قال: فحدثني بأربعين حديثا، ثم قال: هات. فأعدتها عليه، ما أخطأت في حرف. ينظر: تذكرة الحفاظ: ٢ / ٦٣٥، وتهذيب التهذيب: ٩ / ٣٨٨ - ٣٨٩.

(٣) (٧/ ٢٢٠).

حتي أن الحُمَيْدِيُّ: سَــمِعَ سُــفْيَانَ يَقُوْلُ: «لاَ تَدْخُلُ هَذِهِ المَحَابِرُ بَيْتَ رَجُلٍ، إِلاَّ أَشْقَى أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ.

وَقَالَ سُفْيَانُ مَرَّةً لِرَجُلٍ: مَا حِرْفَتُكَ؟

قَالَ: طَلَبُ الحَدِيْثِ.

قَالَ: بَشِّرْ أَهْلَكَ بِالإِفْلاَسِ»[1].

ومــن قصصهم في ذلك: ما جاء عــن أَحْمَدَ بنَ أَعْــيَنَ بِالمَصِّيْصَةِ قال: سَمِعْتُ عَلِيَّ بنَ عَاصِمٍ يَقُوْلُ: «دَفَعَ إِلَيَّ أَبِي مائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ، وَقَالَ: اذْهَبْ، فَلاَ أَرَى لَكَ وَجْهاً إِلاَّ بِمائَةِ أَلْفِ حَدِيْثٍ.

وَبِــهِ إِلَى الخَطِيْبِ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ فَضَالَةَ بِالرَّيِّ، أَخْبَرَنَا أَبُو نَصْرٍ أَحْمَدُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ جَعْفَرٍ بِبَلْخَ، حَدَّثَنَا مُوْسَى بنُ مُحَمَّدٍ المُؤَدِّبُ، سَمِعْتُ أَحْمَدَ بنَ إِبْرَاهِيْمَ بنِ حَرْبٍ النَّيْسَابُوْرِيَّ، سَمِعْتُ عَلِيَّ بنَ عَاصِمٍ يَقُوْلُ:

أَعْطَانِي أَبِي مائَةَ أَلْــفِ دِرْهَمٍ، فَأَتَيْتُهُ بِمائَةِ أَلْــفِ حَدِيْثٍ، وَكُنْتُ أُرْدِفُ هُشَيْماً خَلْفِي لِيَسْمَعَ مَعِيَ الشَّيْءَ بَعْدَ الشَّيْءِ»[2].

(١) (٨/ ٤٦١).

(٢) (٩/ ٢٥٢).

وقَالَ حَمْدَانُ بنُ هَانِئ المُقْرِئُ: سَــمِعْتُ خَلَفُ بنُ هِشَامٍ يَقُوْلُ: «أَشْكَلَ عَلَيَّ بَابٌ مِنَ النَّحْوِ، فَأَنْفَقْتُ ثَمَانِيْنَ أَلْفَ دِرْهَمٍ حَتَّى حَذِقْتُهُ»[1].

وانكَسَرَ قَلَمُ مُحَمَّدِ بنِ سَــلاَمٍ البِيْكَنْدِيِّ فِي مَجْلِسِ شَيْخٍ، فَأَمَرَ أَنْ يُنَادَى: قَلَمٌ بِدِيْنَارٍ، فَطَارَتْ إِلَيْهِ الأَقلاَمُ»[2].

وقَالَ ابْنُ عَدِيٍّ: حَدَّثَنِي شَيْخٌ كَاتِبٌ ذَكَرَ أَنَّهُ قَرَابَةُ يَحْيَى بنِ مَعِيْنٍ، قَالَ:

«كَانَ مَعِيْنٌ عَلَى خَرَاجِ الرَّيِّ، فَمَاتَ، فَخَلَّفَ لِيَحْيَى ابْنِهِ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ، فَأَنفَقَهُ كُلَّهُ عَلَى الحَدِيْثِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُ نَعلٌ يَلبَسُهُ» [3].

قَالَ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بنُ سُــلَيْمَانَ الرَّبَعِيُّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بنُ الفَيْضِ الغَسَّانِيُّ، سَــمِعْتُ هِشَــامَ بنَ عَمَّارٍ، يَقُوْلُ: بَاعَ أَبِي بَيتاً لَهُ بِعِشْرِيْــنَ دِيْنَاراً، وَجَهَّزَنِي لِلْحَجِّ، فَلَمَّا صِرتُ إِلَى المَدِيْنَةِ، أَتَيتُ مَجْلِسَ مَالِكٍ، وَمَعِيَ مَسَــائِلُ أُرِيْدُ أَنْ أَسْأَلَهُ عَنْهَا.

فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ جَالِسٌ فِي هَيْئَةِ المُلُوْكِ، وَغِلمَانٌ قِيَامٌ، وَالنَّاسُ يَسْــأَلُوْنَهُ، وَهُوَ يُجِيْبُهُم.

(١) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٥٧٨).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٦٢٩).

(٣) سير أعلام النبلاء (١١/ ٧٧) .

فَلَمَّا انْقَضَى المَجْلِسُ، قَالَ لِي بَعْضُ أَصْحَابِ الحَدِيْثِ: سَلْ عَنْ مَا مَعَكَ؟

فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ الله، مَا تَقُوْلُ فِي كَذَا وَكَذَا؟

فَقَالَ: حَصَلْنَا عَلَى الصِّبْيَانِ، يَا غُلاَمُ، احْمِلْهُ.

فَحَمَلَنِـــي كَمَا يُحمَلُ الصَّبِيُّ، وَأَنَا يَوْمَئِذٍ غُلاَمٌ مُدْرِكٌ، فَضَرَبَنِي بِدِرَّةٍ مِثْلِ دِرَّةِ المُعَلِّمِيْنَ سَبْعَ عَشْرَةَ دِرَّةٍ، فَوَقَفتُ أَبْكِي.

فَقَالَ لِي: مَا يُبْكِيْكَ؟ أَوْجَعَتْكَ هَذِهِ الدِّرَّةُ؟

قُلْتُ: إِنَّ أَبِي بَاعَ مَنْزِلَهُ، وَوَجَّهَ بِي أَتَشَرَّفُ بِكَ، وَبِالسَّمَاعِ مِنْكَ، فَضَرَبْتَنِي؟

فَقَالَ: اكتُبْ.

قَالَ: فَحَدَّثَنِي سَـــبْعَةَ عَشَرَ حَدِيْثاً، وَسَـــأَلْتُهُ عَمَّا كَانَ مَعِي مِنَ المَسَائِلِ، فَأَجَابَنِي» .

قَالَ يَعْقُوْبُ بنُ إِسْحَاقَ الهَرَوِيُّ، عَنْ صَالِحِ بنِ مُحَمَّدٍ الحَافِظِ:

سَمِعْتُ هِشَامَ بنَ عَمَّارٍ يَقُوْلُ: «دَخَلْتُ عَلَى مَالِكٍ، فَقُلْتُ لَهُ: حَدِّثْنِي.

فَقَالَ: اقْرَأْ.

فَقُلْتُ: لاَ، بَلْ حَدِّثْنِي.

فَقَالَ: اقْرَأْ.

فَلَمَّا أَكْثَرْتُ عَلَيْهِ، قَالَ: يَا غُلاَمُ، تَعَالَ اذْهَبْ بِهَذَا، فَاضْرِبْهُ خَمْسَةَ عَشَرَ.

فَذَهَبَ بِي، فَضَرَبَنِي خَمْسَ عَشْرَةَ دِرَّةً، ثُمَّ جَاءَ بِي إِلَيْهِ، فَقَالَ: قَدْ ضَرَبْتُهُ.

فَقُلْتُ لَـهُ: لِمَ ظَلَمْتَنِي؟ ضَرَبتَنِي خَمْسَ عَشْرَةَ دِرَّةً بِغَيْرِ جُرمٍ، لاَ أَجعَلُكَ فِي حِلٍّ.

فَقَالَ مَالِكٌ: فَمَا كَفَّارَتُهُ؟

قُلْتُ: كَفَّارَتُهُ أَنْ تُحَدِّثَنِي بِخَمْسَةَ عَشَرَ حَدِيْثًا.

قَالَ: فَحَدَّثَنِي بِخَمْسَةَ عَشَرَ حَدِيْثاً.

فَقُلْتُ لَهُ: زِدْ مِنَ الضَّرْبِ، وَزِدْ فِي الحَدِيْثِ.

فَضَحِكَ مَالِكٌ، وَقَالَ: اذهَبْ».

قَالَ الخَلِيْلِيُّ: سَـمِعْتُ عَلِيَّ بنَ أَحْمَدَ بنِ صَالِحٍ المُقْرِئَ، حَدَّثَنَا الحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ الطُّوْسِيُّ، سَـمِعْتُ مُحَمَّدَ بنَ طَرْخَانَ، سَمِعْتُ هِشَـامَ بنَ عَمَّارٍ يَقُوْلُ: «قَصَـدْتُ بَابَ مَالِكٍ، فَهَجَمْتُ عَلَيْهِ بِلاَ إِذنٍ، فَأَمَرَ غُلاَماً لَهُ، حَتَّى ضَرَبَنِي سَبْعَةَ عَشَرَ ضَرْبَ السَّلاَطِينِ، وَأُخْرِجْتُ، فَقَعَدْتُ عَلَى بَابِهِ أَبْكِي، وَلَمْ أَبْكِ لِلضَّرْبِ، بَلْ بَكَيْتُ حَسْرَةً، فَحَضَرَ جَمَاعَةٌ.

قَالَ: فَقَصَصْتُ عَلَيْهِم، فَشَفَعُوا فِيَّ، فَأَملَى عَلَيَّ سَبْعَةَ عَشَرَ حَدِيْثًا»[1].

(١) سير أعلام النبلاء (١١/ ٤٢٩: ٤٢٨).

وقَالَ الحُسَيْنُ بنُ الحَسَنِ بنِ سُفْيَانَ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بنَ يَحْيَى الذُّهْلِيَّ يَقُوْلُ: «ارتحلْتُ ثَلاَثَ رحلاَتٍ، وَأَنْفَقْتُ عَلَى العِلْمِ مائَةً وَخَمْسِيْنَ أَلْفاً، وَلَمَّا دَخَلْتُ البَصْرَةَ اسْتَقبلتَنِي جِنَازَةُ يَحْيَى القَطَّانِ عَلَى بَابِ البَصْرَةِ»[1].

وهكذا سار على دربهم، واقتدى بهديهم مَنْ جاء بعدهم من الأئمة والعلماء، وعلى رأسهم الإمام أبو عبد الله البخاري حيث اقتفى نهج أولئك الصحب الكرام، فقد ورث من والده مالًا كثيرًا، فماذا يا ترى فعل به؟ هل بنى به بيتًا فارهًا؟ أو تمتع به في ملذات الدنيا الفانية؟! لا ثم لا، وحاشاه وهو يطلب ما عند الله، وإنما أنفق جميع ماله في نصرة سنة قرة عينه، وحبيب قلبه: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول ورَّاقه محمد بن أبي حاتم: قال البخاري: كُنْتُ أَستَغِلُّ كُلَّ شَهْرٍ خَمْسَ مائَةِ دِرْهَمٍ، فَأَنفقْتُ كُلَّ ذَلِكَ فِي طَلَبِ العِلْمِ.. ثم يقول له بقلب قد امتلأ إيمانًا وصدقًا: وما عند الله خير وأبقى[2].

قال الذهبي معلقًا على ذلك: «فَقُلْتُ: كم بَيْنَ مَنْ ينفقُ عَلَى هَذَا الوَجْهِ، وَبَيْنَ مَنْ كَانَ خِلْواً مِنَ المَالِ، فَجَمَعَ وَكسبَ بِالعِلْمِ، حَتَّى اجْتَمَعَ لَهُ»[3].

(١) (١٢/ ٢٨٣).

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي ٦/ ١٤٠.

(٣) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٤٩).

وقَالَ عُمَرَ بنَ حَفْصٍ الأَشْــقَرُ: «كُنَّــا مَعَ البُخَــارِيِّ بِالبَصْرَةِ نكتبُ، فَفَقدنَاهُ أَيَّاماً، ثُمَّ وَجدنَاهُ فِي بَيْتٍ وَهُوَ عُريَانٌ، وَقَدْ نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَجَمَعنَا لَهُ الدَّرَاهِمَ، وَكسونَاهُ»[1].

وهذا هو طريق المحدثين، فهــذا يحيى بن معين إمام المحدثين، قال عنه الإمام أحمد: ســماع الحديث من يحيى شفاء لما في الصدور، ويحيى خلقه الله لهذا الشأن. أي: ذب الكذب عن حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد أنفق هذا الإمام مليون درهم ورثها عن أبيه حتى لم يَبق له نعل يلبسه.

وهذا شــعبة بن الحجاج وصل به الحال من بذلــه وتضحيته في خدمة حديث رســول الله أنه باع جذوع ســقف بيته، وكذلك الإمام مالك باع بعض جذوع بيته من أجل الحديث.

وأما الحافظ الكبير الثبت أبو ســهل الهيثم البغدادي يقول: «أفلســت مرتين»، وكذلك زياد البكائــي كان من أثبت من روى كتاب المغازي عن أبي إسحاق، والسبب أنه باع بيته، ولازم محمد بن إسحاق يدور معه حيث دار.

ومر أنفًا من عجيب تربية الآباء لأبناهم على البذل والتضحية في سبيل طلب الحديث مــا ذكره المحدث علي بن عاصم عــن أبيه، يقول: أعطاني

(١) (١٢/ ٤٤٨).

والدي مائة ألف درهم، وقـال: لا أرك إلا وقد جمعت مائة ألف حديث. وبعد سـنوات من الرحلة والتطواف رجعـت إلى والدي وقد جمعت مائة ألف حديث.

واشـتهر بين العلماء أن طلب الحديث علم المفاليس، أي: نهاية صاحبه الإفلاس، يقول سـفيان بن عيينة إمام وشيخ المحدثين في مكة لرجل: «ما حِرْفَتك؟ قَالَ: طلب الحديث. قَالَ: «**بَشِّرْ أَهْلَكَ بِالْإِفْلَاسِ**»[1]، وهذا شعبة بن الحجاج أبو بسـطام، أبو الفقراء وإمام الدنيا في زمانه في الحديث يقول كذلك: «**مَنْ طَلَبَ الْحَدِيثَ أَفْلَسَ**»[2].

ولماذا سمي بعلم المفاليس؟

لأنهم ينفقون كل غال ونفيس في جمع حديث خير المرسلين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس عندهم وقت ليكونوا تجارًا أو أجراء لغيرهم لأنهم غير مسـتقرين بل يرحلـون ويتنقلون من مدينة إلى مدينه، وهـم كذلك محتاجون لشراء الأوراق والأحبار .

(١) الجامع لأخلاق الراوي والسامع ١/ ١٠٠.
(٢) المصدر السابق ١/ ٩٩.

حتى قال الشـــبِلي: «أَعرفُ مَنْ لَمْ يَدْخُلْ فِي هَذَا الشَّـــأْن حَتَّى أَنفقَ جَمِيْعَ ملكه، وَغرَّق سَـــبْعِيْنَ قِمطراً بِخَطِّه فِي دجلَة الَّتِي تَرَوْنَ وَحَفِظَ (المُوَطَّأ)، وَتلاَ بكذَا وَكَذَا قِرَاءة - يَعْنِي: نَفْسه»[1] -.

عِلْمُ الحَدِيْثِ أجَـلُّ السُّؤلِ والوَطَر
بَعْدَ الكِتَابِ بلا شَكٍّ لَدَى البَشَرِ
فانْقُلْ رحالك عن مَغْنَاكَ مُرتَحلاً
لِـكَي تَـفـوزَ بنقِلِ العِلمِ والأَثَـــرِ
ولا تَقُلْ: عاقَني شُغْلٌ، فَلَيْسَ يُرى
في الـتَّرك لِلعِلمِ مِنْ عُـذرٍ لِمُعْتَذِرِ
وأَيُّ شُغْلٍ كَمِثْلِ العِلمِ تَطْلُبُه
وَنَقْلِ ما قَدْ رَوَوْا عن سَيّدِ البَشَرِ؟
أَلْـهَى عن العِلمِ أَقْـوَامًـا تَطَلُّبُهُمْ
لَذَّاتِ دُنيا غَـــدَوا منها على غَـرَرِ
والْحَـــقْ بـقَـوْمٍ إذا لاحَـــتْ وُجُوهُهُمُ
رَأَيْتَهَا مِن سَنَا التوفِيقِ كالقَمَرِ

(١) سير أعلام النبلاء (١٥/ ٣٦٩).

أَضْحَوْا مِن السّنّة العَلْيَاءِ في سَنَنٍ
سَهْلٍ وقامُوا بَحِفْظِ الدِيــنِ والأَثَــرِ
أَجَــلُّ شَيْءٍ لَدَيْــهِــمْ قــال أخْــبَرَنَــا
عن الرسولِ بما قد صَحّ مِن خَبَرِ
هَــذي الــمَــكَارِمُ لاَ قَعْبَان مِن لَبَنٍ
ولا التَّــمَــتُّــعَ بــالــلذات والأَشَرِ

ومن خــلال هذه النماذج الفريــدة العظيمة اليســيرة للإمام البخاري وإخوانه من المحدثين الصادقين الباذلين نوجه رسالة إلى أمتنا الغالية أنك لن تكون لك الريادة والسيادة والذكر الحسن إلا بالبذل والعطاء من أجل نصرة دين الله وسنة خير خلق الله صلوات ربي وسلامه عليه.

وإليك أبيات تجلي بعض ما بذله أهل الحديث:

جزَى الله أَصْحَابَ الحَدِيثِ مَثْوبَةً
وبَــوأَهُــم في الخُــلْدِ أعْلَى الــمَــنــازِلِ
فلولا اعْتنَاهُم بالحديث وحفْظه
ونَــفْــيُــهُــم عَنه ضرُوبَ الأبَــاطِــل

وإِنْـفِـاقُـهـم أعْـمَـارَهُـم في طِـلاَبِـهِ
وبَحْـثِـهُـمُ عـنـه بجـدٍّ مُـوَاصِـلِ
لَمَا كَانَ يَـدْرِيْ مَـنْ غَـدَا مُتَفَقِّهًا
صحيحَ حَدِيْثٍ مَنْ سَقِيْم وَبَاطِلِ
ولم يَسْتَبِنْ ما كان في الذّكْـرِ مُجْمَلًا
ولم نـدَرِ فَرْضًا مِـنْ عُمُوم النَّوافِلِ
لقدْ بَـذَلـوُا فِيهِ نُفُوسًا نفيسَةً
وَبَـاعُـوا بحَـظٍّ آجِـل كُلَّ عَاجِـلِ
فحُبُهمُ فَـرْضٌ على كُلِّ مُسْلِمٍ
ولَيْسَ يُعَادِيْهِم سِـوَى كل جَاهِلِ

❊ ❊ ❊

من أسرار عظمته

صبره وحرصه على طلب الحديث

من أبـــرز أسرار العظماء: صبرهم، وهمهم الدائم، وتفانيهم المســـتمر، وشـــغفهم، وحرصهم على كل ما فيه إتقان لعملهـــم، وقد ضرب الإمام البخاري أروع الأمثال في عظيم جلـــده، وعجيب تفانيه، وتفكيره، وهمه الدائم في تقييد كل ما يتعلق بخدمة ســـنة رســـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى لو ضحى بلذيذ نومه يقول محمد بن أبي حاتم الـــورّاق: كَانَ أَبُو عَبْدِ الله، إِذَا كُنْتُ مَعَهُ فِي ســـفرٍ، يَجْمَعُنَا بَيْتٌ وَاحِدٌ إِلاَّ فِي القيظِ أَحْيَاناً، فَكُنْتُ أَرَاهُ يقومُ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ خَمْسَ عَشْرَةَ مرَّة إِلَى عِشْرِيْنَ مرَّة، فِي كُلِّ ذَلِكَ يَأْخُذُ القَدَّاحَةَ، فيُورِي نَاراً، وَيُسْرِجُ، ثُمَّ يُخرجُ أَحَادِيْثَ، فيُعلِّمُ عَلَيْهَا[1] ..

وَقَالَ مُحَمَّدُ بنُ أَبِي حَاتِمٍ: سَـــمِعْتُ هَانِئَ بنَ النَّضْر يَقُوْلُ: كُنَّا عِنْدَ مُحَمَّدِ بنِ يُوْسُـــفَ -يَعْنِي: الفِرْيَابِيَّ- بِالشَّـــامِ وَكُنَّا نَتَنَزَّهُ فِعْلَ الشَّـــبَابِ فِي أَكلِ الفِرْصَادِ[2] وَنَحْوِهِ، وَكَانَ مُحَمَّدُ بنُ إِسْـــمَاعِيْلَ مَعَنَا، وَكَانَ لَا يُزَاحمنَا فِي شَيْءٍ مِمَّا نَحْنُ فِيْهِ، وَيُكِبُّ عَلَى العِلْمِ[3].

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٠٤).

(٢) أي: التوت، وقيل حمله، وهو الاحمر منه.

(٣) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٠٥).

وَقَالَ: سَمِعْتُ العَبَّاسَ الدُّوْرِيَّ يَقُوْلُ: مَا رَأَيْتُ أَحَداً يُحْسِنُ طلبَ الحَدِيْثِ مِثْلَ مُحَمَّدِ بنِ إِسْمَاعِيْلَ، كَانَ لاَ يدعُ أَصْلاً وَلاَ فرعاً إِلاَّ قَلَعَهُ.

ثُمَّ قَالَ لَنَا: لاَ تَدَعُوا مِنْ كَلاَمِهِ شَيْئاً إِلاَّ كَتَبْتُمُوهُ [1].

أي همة تعدل همتك يا أبا عبد الله؟! وأي جهدٍ يسامي جهدك؟!

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

وقال جَعْفَر بنَ مُحَمَّدٍ القَطَّانَ إِمَامَ كرمِيْنِيَةَ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بنَ إِسْمَاعِيْل يَقُوْلُ: كَتَبْتُ عَنْ أَلفِ شَيْخٍ وَأَكْثَر، عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُم عَشْرَةُ آلاَفٍ وَأَكْثَر، مَا عِنْدِي حَدِيْثٌ إِلاَّ أَذكُرُ إِسْنَادَهُ [2].

وكما أنهم كانوا يضحون بلذيذ نعيم العيش فكذلك كانت لهم نفوس أبيَّة وعزة نفس عليّةٍ، فلا يسألون أحداً شيئًا، وحالهم كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لصحابته: «**مَنْ تَكَفَّلَ لِي أَنْ لَا يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا، فَأَتَكَفَّلَ لَهُ بِالْجَنَّةِ**»[3] فهذا حال أمير المؤمنين.

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٠٦).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٠٧).

(٣) أخرجه النسائي في «المجتبى» (١ / ٥١٩) برقم: (٢٥٨٩ / ١) وأبو داود في «سننه» (٢ / ٤٢) برقم: (١٦٤٣) وابن ماجه في «سننه» (٣/ ٤٦) برقم: (١٨٣٧) وأحمد في «مسنده» (١٠ / ٥٢٦٣) برقم: (٢٢٧٩٩) وصححه ابن عبد البر في التمهيد (٤/ ٩٣).

يقول وراقه مُحَمَّدُ بنُ أَبِي حَاتِمٍ: «سَــمِعْتُ البُخَارِيَّ يَقُوْلُ: خَرَجتُ إِلَى آدَمَ بنِ أَبِي إِيَاسٍ، فَتخلَّفَتْ عَنِّي نَفَقَتِي، حَتَّى جَعَلتُ أَتنَاولُ الحشيشَ، وَلاَ أُخْبِرْ بِذَلِكَ أَحَدًا.

ولكــن هل يُضيع من بيده خزائن الســموات والأرض أولياءه؟ لا ثم لا..

يقــول وراقه: «فَلَمَّا كَانَ اليَوْمُ الثَّالِثُ أَتَــانِي آتٍ لَمْ أَعرِفْهُ، فَنَاولَنِي صُرَّةَ دَنَانِيْر، وَقَالَ: أَنْفِقْ عَلَى نَفْسِكَ[1]».

ويقــول عُمَرَ بنَ حَفْصٍ الأَشْــقَرُ: «كُنَّا مَعَ البُخَــارِيِّ بِالبَصْرَةِ نكتبُ، فَفَقدنَاهُ أَيَّاماً، ثُمَّ وَجدنَاهُ فِي بَيْتٍ وَهُوَ عُريَانٌ، وَقَدْ نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَجَمَعنَا لَهُ الدَّرَاهِمَ، وَكسونَاهُ»[2].

ولم تكن هذه الصفحات المشرقة في التضحية خاصة بالإمام البخاري؛ بل كان هذا حال أكثــر المحدثين يبذلون كل غال ونفيس في خدمة ســنة خير المرســلين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا قرينــه أبو حاتم إمام الدنيــا في زمانه في الجرح والتعديل يقول عن نفسه: «بَقِيْتُ فِي سَــنَةِ أَرْبَعَ عَشْرَةَ، ثَمَانِيَةَ أَشْهُرٍ

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٤٨).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٤٨).

بِالبَصْرَةِ، وَكَانَ فِي نَفْسِي أَنْ أُقِيْمَ سَنَةً، فَانْقَطَعَتْ نَفَقَتِي، فَجَعَلْتُ أَبِيْعُ ثِيَابِي حَتَّى نَفِدَتْ، وَبَقِيْتُ بِلاَ نَفَقَةٍ، وَمَضَيْتُ أَطُوْفُ مَعَ صَدِيْقٍ لِي إِلَى المَشْيَخَةِ، وَأَسْمَعُ إِلَى المَسَاءِ، فَانْصَرَفَ رَفِيْقِي، وَرجَعْتُ إِلَى بَيْتِي، فَجَعَلْتُ أَشْرَبُ المَاءَ مِنَ الجُوْعِ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ، فَغَدَا عَلَيَّ رَفِيْقِي، فَجَعَلْتُ أَطُوْفُ مَعَهُ فِي سَمَاعِ الحَدِيْثِ عَلَى جُوْعٍ شَدِيْدٍ، وَانصَرَفْتُ جَائِعاً، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الغَدِ، غَدَا عَلَيَّ، فَقَالَ: مُرَّ بِنَا إِلَى المَشَايِخِ.

قُلْتُ: أَنَا ضَعِيْفٌ لاَ يُمْكِنُنِي.

قَالَ: مَا ضَعْفُكَ؟

قُلْتُ: لاَ أَكْتُمُكَ أَمْرِي، قَدْ مَضَى يَوْمَان مَا طَعِمتُ فِيْهِمَا شَيْئًا.

فَقَالَ: قَدْ بَقِيَ مَعِيَ دِيْنَارٌ، فَنِصْفُهُ لَكَ، وَنَجْعَلُ النِّصْفَ الآخَرَ فِي الكِرَاءِ، فَخَرَجْنَا مِنَ البَصْرَةِ، وَأَخَذْتُ مِنْهُ النِّصْفَ دِيْنَار»[1].

(١) سير أعلام النبلاء (١٣/ ٢٥٧)، وهنا أذكر قصة واقعية فيها عبرة وعظة وهي لرجل معروف بتفريج كربات الناس ومساعدة البهائم وإعانتهم يحدثني بها عمي عن عبيد يقول بينما هو في منطقة صحراء وهو يعيش في قرية ومعه سيارة قديمة فتوقفت فنزل لكي يصلحها إلا أن مقدمة السيارة وهو يصلحها انطبق على يديه فلم يستطع يخرجها فإذا برجل يناديه عبيد خير إن شاء الله قال له أدخل السيارة وافتح كبوت السيارة ففتحه ثم بحث عنه فلم يرى له أثر.

وإن تعجب فاعجب من هذه الهمم العلية لما سئل الطبراني صاحب المعاجم الثلاثة الكبير والأوسط والصغير عن كثرة حديثه قال: «كنت أنام على الحصير ثلاثين سنة».

وأما حماد بن أسامة يقول: «كَتَبْتُ بِأُصْبُعَيَّ هَاتَيْنِ مائَةَ أَلْفِ حَدِيْثٍ»[1].

بل وصل بهم الأمر من الصبر والجلد والتضحية إلى أن الواحد قد يتعرض إلى أن يشرب بوله لعدم وجود الماء، يقول الحافظ عبد الرحمن بن خراش: «شَرِبت بولِي فِي هَذَا الشَّأْن -يَعْنِي الحَدِيْث- خَمْس مَرَّات[2]»، وذلك في حال الاضطرار وعدم توفر المياه، ولم يكن في زمانهم في طرق رحلاتهم محطات ولا استراحات، وإنما مفاوز ومقطعة.

ومنهم من تعرض للموت في سبيل هذا الشأن، قال أبو حاتم: «خَرَجْنَا مِنَ المَدِيْنَةِ، مِنْ عِنْدِ دَاوُدَ الجَعْفَرِيِّ، وَصِرْنَا إِلَى الجَارِ وَرَكِبْنَا البَحْرَ، فَكَانَتِ الرِّيْحُ فِي وَجُوْهِنَا، فَبَقِيْنَا فِي البَحْرِ ثَلاَثَةَ أَشْهُرٍ، وَضَاقتْ صُدُوْرُنَا، وَفَنِيَ مَا كَانَ مَعَنَا، وَخَرَجْنَا إِلَى البَرِّ نَمْشِي أَيَّاماً، حَتَّى فَنِيَ مَا تَبَقَّى مَعَنَا مِنَ الزَّادِ وَالمَاءِ، فَمَشَيْنَا يَوْماً لَمْ نَأْكلْ وَلَمْ نَشْرَبْ، وَيَوْمَ الثَّانِي كَمثل، وَيَوْمَ الثَّالِثِ، فَلَمَّا كَانَ يَكُوْنُ المَسَاءَ صَلَّيْنَا، وَكُنَّا نُلْقِي بِأَنْفُسِنَا حَيْثُ كُنَّا، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا فِي اليَوْمِ

(١) سير أعلام النبلاء (٩/ ٢٧٨).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٣/ ٥٠٩).

الثَّالِثِ، جَعَلنَا نَمْشِي عَلَى قَدْرِ طَاقَتِنَا، وَكُنَّا ثَلاَثَةَ أَنْفُسٍ: شَـيْخٌ نَيْسَابُورِيٌّ، وَأَبُو زُهَيْرٍ المَرْوَرُّوْذِيُّ، فَسَـقَطَ الشَّيْخُ مَغْشِـيّاً عَلَيْهِ، فَجِئْنَا نُحَرِّكُهُ وَهُوَ لاَ يَعْقِلُ، فَتَرَكْنَاهُ، وَمَشَـيْنَا قَدْرَ فَرْسَـخٍ، فَضَعُفْتُ، وَسَـقَطْتُ مَغْشِيّاً عَلِيَّ، وَمَضَى صَاحِبِي يَمْشِي، فَبَصُرَ مِنْ بُعْدٍ قَوْماً، قَرَّبُوا سَفِيْنَتَهُم مِنَ البِرِّ، وَنَزَلُوا عَلَى بِئْرِ مُوْسَى، فَلَمَّا عَايَنَهُم، لَوَّحَ بِثَوْبِهِ إِلَيْهِم، فَجَاؤُوهُ مَعَهُم مَاءٌ فِي إِدَاوَةٍ . فَسَقَوْهُ وَأَخَذُوا بِيَدِهِ.

فَقَالَ لَهُم: الحَقُـوا رَفِيْقَيْنِ لِي، فَمَا شَـعَرْتُ إِلاَّ بِرَجُلٍ يَصُـبُّ المَاءَ عَلَى وَجْهِي، فَفَتَحْتُ عَيْنِيَّ، فَقُلْتُ: اسـقِنِي، فَصَبَّ مِـنَ المَاءِ فِي مَشْرَبَةٍ قَلِيْلاً، فَشَرِبْتُ، وَرَجَعَتْ إِلَيَّ نَفْسِي، ثُمَّ سَقَانِي قَلِيْلاً، وَأَخَذَ بِيَدِي، فَقُلْتُ: وَرَائِي شَيْخٌ مُلْقَى، فَذَهَبَ جَمَاعَةٌ إِلَيْهِ، وَأَخَذَ بِيَدِي، وَأَنَا أَمشِي وَأَجُرُّ رِجْلَيَّ، حَتَّى إِذَا بَلغْتُ إِلَى عِنْدِ سَفِيْنَتِهِم، وَأَتَوا بِالشَّيْخِ، وَأَحْسَنُوا إِلَيْنَا، فَبَقِينَا أَيَّاماً حَتَّى رَجَعَتْ إِلَيْنَا أَنْفُسُـنَا، ثُمَّ كَتَبُوا لَنَا كِتَاباً إِلَى مَدِيْنَةٍ يُقَالُ لَهَا: رَايَة ، إِلَى وَالِيهِم، وَزَوَّدُونَا مِنَ الكَعْكِ وَالسَوِيْقِ وَالمَاءِ.

فَلَمْ نَزَلْ نَمْشِي حَتَّى نَفِدَ مَا كَانَ مَعَنَـا مِنَ المَاءِ وَالقُوْتِ، فَجَعَلْنَا نَمْشِي جِيَاعاً عَلَى شَطِّ البَحْرِ، حَتَّى دُفِعْنَا إِلَى سُلَحْفَاةٍ مِثْلَ التُّرْسِ، فَعَمَدْنَا إِلَى حَجَرٍ كَبِيْرٍ، فَضَرَبْنَا عَلَى ظَهْرِهَا، فَانْفَلَقَ، فَإِذَا فِيْهَا مِثْلُ صُفْرَةِ البَيْضِ، فَتَحَسَّـيْنَاهُ حَتَّى سَـكَنَ عَنَّا الجُوْعَ ثُمَّ وَصَلْنَا إِلَى مَدِيْنَةِ الرَّايَـةِ، وَأَوْصَلْنَا الكِتَابَ إِلَى

عَامِلِهَا، فَأَنْزَلَنَا فِي دَارِهِ، فَكَانَ يُقَدِّمُ لَنَا كُلَّ يَوْمٍ القَرْعَ، وَيَقُوْلُ لِخَادِمِهِ: هَاتِي لَهُم اليَقْطِيْنَ المُبَارَكِ، فَيُقَدِّمُهُ مَعَ الخُبْزِ أَيَّامًا.

فَقَالَ وَاحِدٌ مِنَّا: أَلاَ تَدْعُو بِاللَّحْمِ المَشْؤُومِ؟! فسَمِعَ صَاحِبُ الدَّارِ، فَقَالَ: أَنَا أُحْسِنُ بِالفَارِسِيَّةِ، فَإِنَّ جَدَّتِي كَانَتْ هَرَوِيَّة، وَأَتَانَا بَعْدَ ذَلِكَ بِاللَّحْمِ، ثُمَّ زَوَّدَنَا إِلَى مِصْرَ»[1].

صبرهم حتى عند موتهم بتحديثهم بحديث رسول الله ﷺ

ومن عجيب حرصهم على تبليغ سنة نبيهم وجريانها في أجسادهم جريانَ الأروح هذه القصة العجيبة التي يحدثنا بها إمام العلل أبو حاتم يقول: لما حضرت الوفاةُ أبا زرعة، وما أدرك ما أبو زرعة[2]، وقد أصابه الطاعون، وبدأ يعرق جبينه، فأردوا أن يذكروه الشهادة، ولكنهم هابوا ذلك لإمامته، فما كان من أبي حاتم إلا أن قال لمحمد بن مسلم بن وارة: ما تحفظ في تلقين الموتى: لا إله إلا الله؟ فقال محمد بن مسلم: يروى عن معاذ بن جبل.

(١) سير أعلام النبلاء (١٣/ ٢٥٨:٢٥٧).

(٢) هو عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد بن فروخ، أبو زُرعَة، الإمام، سيد الحفاظ، محدث الري، كان إماما ربانيا، وحافظًا متقنًا، وكان يحفظ مائة ألف حديث، حتى قيل: «كل حديث لا يعرف أبو زرعة ليس له أصل»، وتوفي سنة(٢٦٤ه). ينظر: تاريخ بغداد ١٢/ ٣٣، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٦٥.

وقبلَ أن يَسْتتم الحديث رفع أبو زرعة رأسه وهو في النزع، فقال: روى عبد الحميد بن جعفر، عن صالح بن أبي عريب، عن كثير بن مرَّة، عن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. دَخَلَ الجَنَّةَ**»(١)، فصار في البيت ضجَّة ببكاءِ من حضَر(٢).

وهذا عبد الرحمن بن أبي حاتم يقول في «تقدمة الجرح والتعديل»: «حضرتُ أبي رَحِمَهُ اللَّهُ وكان في النزع وأنا لا أعلم، فقلت له: هل عُقبة بن عبد الغافر يروي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فقال برأسه لا، فلم أقنع منه، فقلتُ: فهمتَ عني؟ له صحبة؟ قال: هو تابعي.

قال ابن أبي حاتم: «فكان أبي سيدُ عمله: معرفةَ الحديث، وناقِلَةَ الأخبار، فكان في عمره يُقتبَس منه ذلك، فأراد الله أن يُظهر عند وفاته ما كان عليه في حياته»(٣).

سَلامِي على أهل الحديث فإنهم مَصَابيحُ عِلْمٍ، بل نُجُومُ سَمَائِهِ

(١) أخرجه وأبو داود في «سننه» (٢ / ٤٢) برقم: (١٦٤٣)، والنسائي في «المجتبى» (١/ ٥١٩) برقم: (٢٥٨٩ / ١)، وابن ماجه في «سننه» (٣ / ٤٦) برقم: (١٨٣٧) وأحمد في «مسنده» (١٠ / ٥٢٦٣) برقم: (٢٢٧٩٩) وصححه ابن عبد البر في التمهيد (٤/ ٩٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٣/ ٧٦).

(٣) الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (١/ ٣٦٨)، ط: مجلس دائرة المعارف العثمانية - بحيدر آباد الدكن - الهند.

بهم يَهتدِي مَن يَقْتدِي بعُلُومِهم وَيْـرقَى بهم ذُو الداءِ عِلَّةَ دَائِهِ
وَيَحْيَ بهم مَن مَاتَ بالجهَل قَلبُه فَهُمْ كالحَيا تَحْيَا البقاعُ بمائِهِ
لهَمُ حُلَلٌ قد زَيَّنتْهُم مِن الهدَى إذا مَا تَـردَّى ذُو الـرَّدى بِرِدائِهِ
ومَن يَكُنِ الوَحْيُ المُطَهَّرُ عِلْمُه فلا رَيبَ في تَوفيقِهِ وٱهتدَائِهِ
وما يَستوِي تالي الحديث ومَن تلا زَخَــارِفَ مَن أهـوائِـهِ وهُذائِهِ

* * *

من أسرار عظمته

حافظته الفولاذية

إن الله جَلَّوَعَلَا أنزل أديانًا سماوية قبل دين الإسلام، ووكل حفظها إلى علمائها، إلا أنهم لم يقوموا بحفظها يقول سبحانه ﴿ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾ [المائدة: ٤٤]، فنسخ جميع تلك الأديان، وأبقى دين الإسلام الدين الوحيد، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥] ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] .

وخص الله دين الإسلام الذي هو خاتمة الأديان بخصائص، ومنها أنه تكفل بحفظه فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]. ومن تمام وكمال حفظه أنْ حَفِظ القرآن الذي هو كلامه، وحفظ كلام من قام ببيانه وهو كلام رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وممن سخرهم الله لحفظ هذين النورين رجالٌ اصطفاهم واجتباهم، وسخر لهم من الإمكانيات والقدرات ما يكونون به حجة على هذه الأمة، ووكل إليهم هذه المهمة الشاقة، وكان على رأسهم من صحابة رسول الله أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الذي ترك كل شيء لأجل حفظ حديث رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وســـخر من التابعين حفاظًا كأمثال سعيد بن المســـيب، وقتادة، وابن سيرين.

وســـخر من أتباع التابعين أئمة وحفاظاً كأمثال مالك بن أنس، وشعبة بن الحجاج، والأعمش.

إلى عصر إمامنـــا البخاري فكان آية من آيـــات الله في الحفظ والإتقان، وقد ظهـــر ذلك فيه منذ نعومة أظفاره، وتواتـــرت القصص في قوة حفظه وعبقريته، يقول عن نفســـه أنه لما بلغ عشر ســـنين أُلهم الحديث، وكان لا يسمع شيئًا مرة واحده إلا حفظه، ولا يحتاج معه إلى تكرار[1].

وبَالسَّـــنَدِ المَاضِي إِلَى مُحَمَّدِ بنِ أَبِي حَاتِمٍ، قَالَ: «قُلْتُ لأَبِي عَبْدِ الله: كَيْفَ كَانَ بَدْءُ أَمرِكَ؟

قَالَ: أُلْهِمْتُ حِفْظَ الحَدِيْثِ وَأَنَا فِي الكُتَّابِ.

فَقُلْتُ: كم كَانَ سِنُّكَ؟

فَقَالَ: عشرُ سِنِيْنَ، أَوْ أَقَلّ، ثُمَّ خرجْتُ مِنَ الكُتَّابِ بَعْد العشرِ، فَجَعَلْتُ أَخْتَلِفُ إِلَى الدَّاخِلِيِّ وَغَيْرِهِ، فَقَالَ يَوْماً فِيْمَا كَانَ يَقْرَأُ لِلنَّاسِ: سُفْيَانُ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ إِبْرَاهِيْمَ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ أَبَا الزُّبَيْرِ لَمْ يَرْوِ عَنْ إِبْرَاهِيْمَ.

(١) هدى الساري مقدمة فتح الباري لابن حجر (ص: ٤٨٧).

فَانْتَهَــرنِي، فَقُلْتُ لَهُ: ارْجِعْ إِلَى الأَصْلِ فَدَخَلَ فنظَرَ فِيْهِ، ثُمَّ خَرَجَ، فَقَالَ لِي: كَيْفَ هُوَ يَا غُلاَمُ؟

قُلْتُ: هُوَ الزُّبَيْرُ بنُ عَدِيٍّ، عَنْ إِبْرَاهِيْمَ، فَأَخَذَ القلمَ مِنِّي، وَأَحْكَمَ كِتَابَهُ، وَقَالَ: صدقْتَ»[1].

يقول سـليم بن مجاهد: كنت عند محمد بن سلام البيكندي فقال لي: لو جئت قبل لرأيت صبيًا يحفظ سبعين ألف حديث . قال: فخرجت في طلبه حتى لقيته، فقلت: أنت الذي تقول: أنا أحفظ سبعين ألف حديث ؟ قال: نعـم، وأكثر منه، ولا أجيئك بحديث من الصحابة أو التابعين، إلا عرفت مولـد أكثرهم، ووفاتهم، ومسـاكنهم، ولسـت أروي حديثًا من حديث الصحابة، أو التابعـين ؛ -يعني من الموقوفات- إلا وله أصل أحفظ ذلك عن كتاب الله وسنة رسوله[2].

وقال محمد بن أبي حاتم الوراق: سـمعت حاشـد بن إسماعيل وآخر يقولان: كان أبـو عبد الله البخاري يختلف معنا إلى مشـايخ البصرة وهو غلام، فلا يكتب، حتى أتى على ذلك أيام، فكنا نقول له: إنك تختلف معنا ولا تكتب، فما تصنع ؟ فقال لنا يوما بعد سـتة عشرَ يوْماً: إنّكما قد أكثرْتُما

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٣٩٣).

(٢) هدى الساري مقدمة فتح الباري لابن حجر (ص: ٤٨٧).

عليَّ وألحَحْتُما، فاعْرِضا عليّ ما كتبتما . فأخرجنا إليه ما كان عندنا، فزادَ على خمسةِ عشر ألف حديثٍ، فقرأها كلها عن ظهر القلْبِ، حتى جعلنا نُحْكِمُ كُتُبَنا مِنْ حِفْظِهِ. ثم قال: أترون أني أختلف هَدَراً، وأضيع أيامي؟! فعرفنا أنه لا يتقدمه أحد[1].

ولم يكن حفظه مقتصرًا على السماع من مرة واحدة؛ بل كان يلتهم الكتب التهامًا من نظرة واحدة، وهذا قلَّ أن يجتمع في رجل أن يجمع له الحفظ من مرة بالسماع والنظر، يقول أبو بكر الكَلْواذانِي: ما رأيت مثل محمد بن إسماعيل، كان يأخذ الكتابَ مِنَ العلماء، فيطّلع عليه اطّلاعة، فيَحْفَظ عامّة أطرافِ الأحاديثِ بِمَرّةٍ[2].

ولذلك يقول هو عنه نفسه: «أَمَّا طَعَنْتُ فِي سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً، كُنْتُ قَدْ حفظتُ كتبَ ابْنِ الْمُبَارَكِ وَوَكِيْعٍ، وَعرفتُ كَلاَمَ هَؤُلاَءِ، ثُمَّ خرجْتُ مَعَ أُمِّي وَأَخِي أَحْمَدَ إِلَى مَكَّةَ، فَلَمَّا حَجَجْتُ رَجَعَ أَخِي بِهَا! وَتخلَّفْتُ فِي طلبِ الحَدِيْثِ»[3].

(١) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (٢/ ١٥)، طبقات الحنابلة (١/ ٢٧٦) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٢/ ٦١)، سير أعلام النبلاء ط الحديث (١٠/ ٨٧).

(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٢/ ٤١٦).

(٣) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٢/ ٣٩٣).

ثم مكث في بلده ست سنوات وهو يحفظ كل ما عند علماء خرسان حتى حفظ سبعين ألف حديث.

ثم بدأ يزداد حفظه حتى بلغ مائتي ألف حديث، قال علي بن الحسين البيكَندي: قدم علينا محمد بن إسماعيل، قال: فاجتمعنا عنده، فقال بعضنا: سمعتُ إسحاق بن راهويه يقول: كأنّي أنظر إلى سبعينَ ألفَ حديثٍ مِنْ كِتابي .فقال محمد بن إسماعيل: أوَ تَعْجَبُ مِنْ هذا؟! لعلّ في هذا الزّمانِ مَنْ يَنْظُر إلى مائتي ألفِ حديثٍ مِنْ كتابه. (وإنّما عَنى به نفسه)[1].

وقَالَ أَبُو جعفرٍ: «سَمِعْتُ أَبَا عُمَرَ سُلَيمُ بنُ مُجَاهِدٍ يَقُوْلُ: كُنْتُ عِنْدَ مُحَمَّدِ بنِ سَلاَمٍ البِيْكَنْدِيِّ، فَقَالَ: لَوْ جِئْتَ قَبْلُ لرَأَيْتَ صَبِيّاً يَحْفَظُ سَبْعِيْنَ أَلفِ حَدِيْثٍ.

قَالَ: فَخَرَجتُ فِي طَلَبِهِ حَتَّى لَحِقْتُهُ.

قَالَ: أَنْتَ الَّذِي يَقُوْلُ: إِنِّي أَحْفَظُ سَبْعِيْنَ أَلفَ حَدِيْثٍ؟

قَالَ: نَعَمْ، وَأَكْثَر، وَلاَ أَجيئُكَ بِحَدِيْثٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِيْنَ إِلاَّ عَرَّفْتُكَ مولِدَ أَكْثَرِهِم وَوَفَاتَهُم وَمسَاكِنِهِم، وَلَسْتُ أَروِي حَدِيْثاً مِنْ حَدِيْثِ

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٢/ ٤١٦).

الصَّحَابَةِ أَوِ التَّابِعِيْنَ إِلاَّ وَلِي مِنْ ذَلِـكَ أَصْلٌ أَحْفَظُهُ حِفْظاً عَنْ كِتَابِ الله، وَسُنَّةِ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ »[1].

وقد انتشرت قدرة الإمام البخاري على الحفظ إلا أن ذلك لم يصل به إلى العالمية حتى طُبقت عليـه أعلى معايير الإتقان والجودة، وهي الاختبارات المفاجئة لحفظه التي تشهد على إتقانه، وعجيب حفظه، فكانت من الأسباب الرئيسة التي اكسبته الشهرة الواسعة، والإذعان له بالحفظ والإتقان، ومن عجائب تلك القصص:

الاختبار الأول- اختبار أهل الحديث في بغداد:

وَقَالَ أَبُو أَحْمَدَ عَبْدُ الله بنُ عَدِيٍّ الحَافِظُ: «سَـمِعْتُ عِدَّةَ مَشَايِخ يحكُوْن أَنَّ مُحَمَّدَ بنَ إِسْـمَاعِيْلَ البُخَارِيَّ قَدِمَ بَغْدَادَ، فسَـمِعَ بِهِ أَصْحَابُ الحَدِيْثِ، فَاجْتَمَعُوا وَعَمَـدُوا إِلَى مائَةِ حَدِيْثٍ، فَقلبُوا مُتونهَا وَأَسَـانِيْدَهَا، وَجَعَلُوا مَتْنَ هَذَا الإِسْـنَادِ هَذَا، وَإِسْنَادَ هَذَا المَتْنِ هَذَا، وَدفعُوا إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ عَشْرَةَ أَحَادِيْـثَ لِيُلْقُوهَا عَلَى البُخَـارِيِّ فِي المَجْلِسِ، فَاجْتَمَـعَ النَّاسُ، وَانتَدبَ أَحَدُهُم، فَسَأَلَ البُخَارِيَّ عَنْ حَدِيْثٍ مِنْ عَشَرتِهِ، فَقَالَ: لاَ أَعْرِفُهُ.

وَسَأَلَهُ عَنْ آخر، فَقَالَ: لاَ أَعرِفُهُ.

وَكَذَلِكَ حَتَّى فرغَ مِنْ عشرتِهِ.

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٢/ ٤١٧).

فَكَانَ الفقهَاءُ يَلْتَفِتُ بَعْضهُم إِلَى بَعْضٍ، وَيَقُوْلُوْنَ: الرَّجُلَ فَهِمَ.

وَمَنْ كَانَ لاَ يَدْرِي قضَى عَــلَى البُخَارِيِّ بِالعجزِ، ثُمَّ انتدبَ آخرُ، ففَعَلَ كَمَا فعلَ الأَوَّلُ.

وَالبُخَارِيُّ يَقُوْلُ: لاَ أَعرِفُهُ.

ثُمَّ الثَّالِثَ وَإِلَى تمام العشرَةِ أَنفسٍ، وَهُوَ لاَ يزيدُهُم عَلَى: لاَ أَعرِفُهُ.

فَلَــمَّا عَلِمَ أَنَّهُم قَدْ فرغُــوا، التفتَ إِلَى الأَوَّلِ مِنْهُم، فَقَــالَ: أَمَّا حَدِيْثُكَ الأَوَّلُ فكذَا، وَالثَّانِي كَذَا، وَالثَّالِثُ كَذَا إِلَى العشرَةِ، فردَّ كُلَّ متنٍ إِلَى إِسْنَادِهِ.

وَفعلَ بِالآخرينَ مِثْلَ ذَلِكَ.

فَأَقَرَّ لَهُ النَّاسُ بِالحِفْظِ.

فَكَانَ ابْنُ صَاعِدٍ إِذَا ذكرَهُ يَقُوْلُ: الكبشُ النَّطَّاحُ»[1].

الإختبار الثاني- أهل الحديث في سمرقند.

وبنحو اختبار أهل بغداد أراد أربعمائة من المحدثين من أهل ســمرقند أن يختبروا البخاري، فأدخلوا إســناد أهل الحجاز في اليمن والعكس، فما وجدوا عليه سقطة.

(١) (١٢/ ٤٠٨: ٤٠٩).

قال سُــلَيْمَ بنَ مُجَاهِدٍ، سَــمِعْتُ أَبَا الأَزْهَرِ يَقُوْلُ: «كَانَ بِسَمَرْقَنْدَ أَرْبَعُ مائَةٍ مِمَّنْ يطلُبُونَ الحَدِيْثَ، فَاجْتَمَعُوا سَــبْعَةَ أَيَّامٍ، وَأَحَبُّوا مُغَالطَةَ مُحَمَّدِ بنِ إِسْمَاعِيْلَ، فَأَدخلُوا إِسْنَادَ الشَّامِ فِي إِسْــنَادِ العِرَاقِ، وَإِسْنَادَ اليَمَنِ فِي إِسْنَادِ الحَرَمَيْنِ، فَمَا تَعَلَّقُوا مِنْهُ بِسَقْطَةٍ لاَ فِي الإِسْنَادِ، وَلاَ فِي المَتْنِ»[1].

الاختبار الثالث- أهل الحديث في البصرة.

قَالَ غُنْجَارٌ: حَدَّثَنَا مَنْصُوْرُ بنُ إِسْــحَاقَ الأَسَدِيُّ، سَمِعْتُ عَبْدَ الله بن مُحَمَّدِ بنِ إِبْرَاهِيْمَ الزَّاغُوْنِيَّ، سَــمِعْتُ يُوْسُفَ بنَ مُوْسَى المَرْوَرُّوْذِيَّ يَقُوْلُ: «كُنْتُ بِالبَصْرَةِ فِي جَامِعِهَا، إِذْ سَــمِعْتُ مُنَادِيّاً يُنَادِي: يَا أَهْلَ العِلْمِ، قَدْ قَدِمَ مُحَمَّدُ بنُ إِسْــمَاعِيْلَ البُخَارِيُّ، فَقَامُوا فِي طلبِــهِ، وَكُنْتُ مَعَهُم، فرأَينَا رَجُلاً شَابّاً، يُصَلِّي خَلْفَ الأُسْطُوَانَةِ.

فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الصَّلاَةِ، أَحدقُوا بِهِ، وَســأَلُوهُ أَنْ يَعْقِدَ لَهُم مَجْلِسَ الإِملاَءِ، فَأَجَابَهُم.

فَلَــمَّا كَانَ الغدُ اجْتَمَعَ قَرِيْبٌ مِنْ كَذَا كَذَا أَلفٍ فَجَلَسَ لِلإِملاَءِ وَقَالَ: يَا أَهْلَ البَصْرَةِ، أَنَا شَابٌّ وَقَدْ سَأَلْتُمونِي أَنْ أُحدِّثَكُم، وَسأُحدِّثكُم بأَحَادِيْثَ عَنْ أَهْلِ بلدِكُم تَسْتفيدُوْنَ الكُلَّ

(١) (١٢/ ٤١١).

ثُمَّ قَــالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الله بنُ عُثْمَانَ بنِ جَبَلَةَ بــنِ أَبِي رَوَّاد بلدِيُّكُم، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ مَنْصُوْرٍ وَغَيْرِهِ، عَنْ سَالِمِ بنِ أَبِي الجَعْدِ، عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ أَعْرَابِيّاً جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُوْلَ الله، الرَّجُلُ يُحِبُّ القَوْمَ، وَذَكَرَ الحَدِيْثَ.

ثُمَّ قَالَ: لَيْسَ هَذَا عِنْدكُم، إِنَّ مَا عِنْدكُم عَنْ غَيْرِ مَنْصُوْرٍ، عَنْ سَالِمٍ.

وَأَملَى مَجْلِســاً عَلَى هَذَا النَّسَــقِ يَقُوْلُ فِي كُلِّ حَدِيْثٍ: رَوَى شُــعْبَةُ هَذَا الحَدِيْــثِ عندَكُم كَذَا، فَأَمَّا مِنْ رِوَايَةِ فُلاَنٍ، فَلَيْــسَ عندَكُم، أَوْ كَلاَماً هَذَا مَعْنَاهُ.

قَالَ يُوْسُــفُ: وَكَانَ دُخولِي البَــصْرَةَ أَيَّامَ مُحَمَّدِ بنِ عَبْــدِ المَلِكِ بنِ أَبِي الشَّوَارِبِ.

وَقَــالَ مُحَمَّدُ بنُ أَبِي حَاتِمٍ الوَرَّاقُ: قَرَأَ عَلَيْنَــا أَبُو عَبْدِ الله كِتَابَ (الهِبَةِ)، فَقَالَ: لَيْسَ فِي هِبَةِ وَكِيْعٍ إِلاَّ حَدِيْثَانِ مُسْنَدَانِ أَوْ ثَلاَثَةٌ.

وَفِي كِتَابِ عَبْدِ الله بنِ المُبَارَكِ خَمْسَــةٌ أَوْ نحوهُ. وَفِي كِتَابِي هَذَا خَمْسُ مائَةِ حَدِيْثٍ أَوْ أَكْثَرُ»[1].

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٠٩: ٤١١).

الاختبار الرابع- مناظرات واسئلة دقيقة:

الأولى- مناظرة أبي بكر بن أبي شيبة:

قَالَ مُحَمَّدٌ بنُ أَبِي حَاتِمٍ: سَمِعْتُ إِبْرَاهِيْمَ بنَ مُحَمَّدِ بنِ سَلاَمٍ يَقُوْلُ: «حضَرتُ أَبَا بَكْرٍ بنَ أَبِي شَيْبَةَ، فَرَأَيْتُ رَجُلاً يَقُوْلُ فِي مَجْلِسِهِ: نَاظرَ أَبُو بَكْرٍ أَبَا عَبْدِ الله فِي أَحَادِيْثِ سُفْيَانَ، فَعَرفَ كُلَّهَا، ثُمَّ أَقبلَ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ، فَأَغربَ عَلَيْهِ مَائَتَي حَدِيْثٍ.

فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَ ذَلِكَ يَقُوْلُ: ذَاكَ الفَتَى البَازِلُ - وَالبَازِلُ الجملُ المُسِنُّ - إِلاَّ أَنَّهُ يُرِيْدُ هَا هُنَا البصيرُ بِالعِلْمِ، الشجَاعُ»[1].

الثانية- أسئلة دقيقة من إسحاق بن راهويه:

وكانوا يسألونه عن دقائق الأمور التي لا يكاد يعرفها أحد، قَالَ مُحَمَّدٌ: وَسَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ المَدِيْنِيَّ بِالشَّاشِ زَمَنَ عَبْدِ الله بنِ أَبِي عَرَابَةَ يَقُوْلُ: كُنَّا بِنَيْسَابُوْرَ عِنْدَ إِسْحَاقَ بنِ رَاهْوَيْه، وَأَبُو عَبْدِ الله فِي المَجْلِسِ، فَمَرَّ إِسْحَاقُ بِحَدِيْثٍ كَانَ دُوْنَ الصَّحَابِيِّ عَطَاءَ الكَيْخَارَانِيِّ.

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٠٩: ٤١١).

فَقَالَ إِسْحَاقُ: يَا أَبَا عَبْدِ الله، أَيش كَيْخَارَان؟ فَقَالَ: قَرْيَةٌ بِاليَمَنِ، كَانَ مُعَاوِيَةُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ بعثَ هَذَا الرَّجُلَ، وَكَانَ يُسَمِّيهِ أَبُو بَكْرٍ، فَأُنْسِيتُهُ إِلَى اليَمَنِ، فَمَرَّ بكَيْخَارَان، فسَمِعَ مِنْهُ عَطَاءُ حَدِيْثَيْنِ.

فَقَالَ لَهُ إِسْحَاقُ: يَا أَبَا عَبْدِ الله، كَأَنَّكَ شَهِدْتَ القَوْمَ "[1].

الثالثة- أسئلة الذهلي له في جنازة:

قال أحمد بن حمدون: رأيت محمد بن إسماعيل في جنازة سعيد بن مروان، ومحمد بن يحيى الذهلي يسأله عن الأسامي والكنى والعلل، ومحمد بن إسماعيل يمر فيه مثل السهم، كأنه يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١][2] فإذا كان الحديث لا يعرفه البخاري فهو ليس بحديث، يقول مُحَمَّدُ بنُ أَبِي حَاتِمٍ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ الله يَقُوْلُ: «ذَاكرنِي أَصْحَابُ عَمْرِو بنِ عَلِيٍّ الفَلاَّسِ بِحَدِيْثٍ، فَقُلْتُ: لاَ أَعْرِفُهُ، فَسُرُّوا بِذَلِكَ، وَصَارُوا إِلَى عَمْرٍو، فَأَخبروهُ.

فَقَالَ: حَدِيْثٌ لاَ يَعْرِفُهُ مُحَمَّدُ بنُ إِسْمَاعِيْلَ لَيْسَ بِحَدِيْثٍ»[3].

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤١٥)، هدى الساري مقدمة فتح الباري ص: ٤٨٣.

(٢) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٣٢).

(٣) (١٢/ ٤٢٠).

وبعد هذه الاختبارات والمناظـرات أذعن له العلماء قاطبة على إمامته، وتقدمه، وحفظه، ودقته، وإتقانه، فكانوا ينزلونه أعظم المنازل وأجلَّها.

ومن ذلك ما رواه فتح بن نوح النيسـابوري قال: أتيت علي ابن المديني فرأيت محمد بن إسماعيل جالسًا عن يمينه وكان إذا حدث التفت إليه مهابة له[1].

بل كان الرعب يدب على قلوب بعضهم إذا دخل عليهم قال أبو عمرو الخفاف: «لو دخل من هذا الباب محمد بن إسـماعيل وأنا أحدث لملئت منه رعبًا»[2].

بل كان سـيد الحفاظ، وإمام الدنيا في الحديـث الإمام أبو زرعة يهاب الإمام البخاري، يقول إِبْرَاهِيْمَ الخَوَّاصَ، مُستملِي صَدَقَةَ: «رَأَيْتُ أَبَا زُرْعَةَ كَالصَّبيِّ جَالِساً بَيْنَ يَدِي مُحَمَّدِ بنِ إِسْمَاعِيْلَ، يَسْأَلُهُ عَنْ عِلَلِ الحَدِيْثِ»[3].

، ولم يكن ذلك فقط من أبي زرعة، بل حتى مسلم بن الحجاج صاحب صحيح مسلم كان بين يدي البخاري يسأله سؤال الصبي[4].

(١) هدى الساري مقدمة فتح الباري ص: ٨٣، تاريخ بغداد (١٨ / ٢)، تغليق التعليق ص: ٩.

(٢) هدى الساري مقدمة فتح الباري ص: ٨٥، تاريخ بغداد (٢/ ٢٨)، تغليق التعليق ص: ١٢.

(٣) (١٢/ ٤٠٧).

(٤) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٠٧).

فهل بعد هذه القصص التي هي نقطــة من بحر حفظ الإمام البخاري وإتقانــه وذكائه وبراعته، كلام لمتكلم، أو طعن لطاعن؟! ســبحانك هذا بهتان عظيم .

* * *

فقه الإمام البخاري

للإمـــام البخاري في صحيحه تبويبات تُجلِّي عظيـــم فقهه، ودقيق فهمه لكتاب الله ولسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل وكذلك للسان العرب، وقد أعمل الشُراح أنظارهم وكدوا أذهانهم في اســتخراج النكت الفقهية التي يصرح بها حينا ويلمح بها حينا آخر في تراجمــه على الأحاديث، وقد أظهر في هذا الجانب تميزا أثنى عليه المحققون، واغترف من معينه الراســخون علمًا جمًّا، وممن شهد له بالإمامة في الفقه:

أبو مصعــب الزهري، الإمام الثقة، شــيخ دار الهجرة أحمد بن أبي بكر القاسم المدني الفقيه قاضي المدينة:

وَقَالَ مُحَمَّدُ بنُ أَبِي حَاتِمٍ: «سَــمِعْتُ حَاشِدَ بنَ عَبْدِ الله يَقُوْلُ: قَالَ لِي أَبُو مُصْعَبِ الزُّهْرِيُّ: مُحَمَّدُ بنُ إِسْــمَاعِيْلَ أَفقَهُ عِنْدنَا وَأَبصرُ بِالحَدِيْثِ مِنْ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ.

فَقِيْلَ لَهُ: جَاوزتَ الحدَّ.

فَقَالَ لِلرَّجُلِ: لَــوْ أَدْرَكْتَ مَالِكاً، وَنظرتَ إِلَى وَجْهِــهِ وَوجهِ مُحَمَّدِ بنِ إِسْمَاعِيْلَ، لقُلْتَ: كِلاَهُمَا وَاحِدٌ فِي الفِقْهِ وَالحَدِيْثِ[1].

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٢٠).

شـــهادة نعيم بن حماد أبـــو عبد الله المروزي الخزاعـــي الأعور المعروف بالفارض:

قَالَ صَالِحَ بنَ مِسْـــمَارٍ المَرْوَزِيَّ: سَمِعْتُ نُعَيْمَ بنَ حَمَّادٍ يَقُوْلُ: «مُحَمَّدُ بنُ إِسْمَاعِيْلَ فَقِيْهُ هَذِهِ الأُمَّةِ»[1]

شهادة قتيبة بن سعيد:

قَالَ مُحَمَّدُ بنُ يُوْسُـــفَ الهَمَذَانِيُّ: «كُنَّا عِنْدَ قُتَيْبَةَ بنِ سَـــعِيْدٍ، فَجَاءَ رَجُلٌ شَـــعْرَانِيٌّ يُقَالُ لَهُ: أَبُو يَعْقُوْبَ، فَسَأَلَهُ عَنْ مُحَمَّدِ بنِ إِسْمَاعِيْلَ، فنكسَ رَأْسَهُ، ثُمَّ رفعَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: يَا هَؤُلاَءِ، نظرْتُ فِي الحَدِيْثِ، وَنظرتُ فِي الرَّأْيِ، وَجَالَسْـــتُ الفُقَهَاءَ وَالزُّهَـــادَ وَالعُبَّادَ، مَا رَأَيْتُ مُنْذُ عقلْـــتُ مِثْلَ مُحَمَّدِ بنِ إِسمَاعيلَ»[2].

شهادة سليم بن مجاهد:

قَالَ مُحَمَّدُ بنُ أَبِي حَاتِمٍ وَسَمِعْتُ سليماً يَقُوْلُ: «مَا رَأَيْتُ بعينِي مُنْذُ سِتِّيْنَ سَنَةً أَفْقَهَ، وَلاَ أَوْرَعَ، وَلاَ أَزْهَدَ فِي الدُّنْيَا، مِنْ مُحَمَّدِ بنِ إِسْمَاعِيْلَ»[3].

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤١٨).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٣١).

(٣) (١٢/ ٤٤٩).

أهل المعرفة يُقدّمون البُخاريّ على شيخهِ إسحاق:

قَالَ مُحَمَّدُ: وَسَمِعْتُ عَبْدَ الله بنَ سَعِيْدِ بنِ جَعْفَرٍ يَقُوْلُ: «لَمَّا مَاتَ أَحْمَدُ بنُ حَرْبٍ النَّيْسَابُوْرِيُّ ركبَ مُحَمَّدٌ وَإِسْحَاقُ يُشَيِّعَانِ جِنَازَتَهُ.

فكُنْتُ أَسْمَعُ أَهْلَ المَعْرِفَةِ بِنَيْسَابُوْرَ يَنْظُرُونَ، وَيَقُوْلُوْنَ: مُحَمَّدٌ أَفْقَهُ مِنْ إِسْحَاقَ»[1].

شهادة أهل بغداد وهم في هذا الزمان كانوا أعلم أهل الأرض:

قَالَ أَبُو العَبَّاسِ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الفَقِيْهُ الدَّغُوْلِيُّ: كتبَ أَهْلُ بَغْدَادَ إِلَى البُخَارِيِّ:

المُسْلِمُوْنَ بِخَيْرٍ مَا بَقِيْتَ لَهُم ... وَلَيْسَ بَعْدَكَ خَيْرٌ حِيْنَ تُفْتَقَدُ»[2]

من أسرار عظمته تزكية نفسه

من أعظم أسباب الفلاح والنجاح في الحياة قبل الممات تزكية النفوس، يقول رب العزة والجلال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]. ويقول ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤]، وكان من دعاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طلب التزكية للنفس ففي صحيح مسلم عن زيد بن أرقم فقَالَ: «كان

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤١٨).

(٢) (١٢/ ٤٣٤).

رسول الله ﷺ يَأْمُرُنَا أَنْ نَقُولَ:...، اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا....»[1]، وقد كان الإمام البخاري من المهتمين بتزكية نفسه اهتمامًا بالغًا، وهذه جملة من المواقف التي تدل على حرصه وسعيه لتزكية نفسه:

كان لا يعمل عملًا إلا بنية:

من دقائق صفات المتقين الصادقين محاسبتهم أنفسهم ليس على الذنوب فحسب؛ بل حتى على الحركات والسكنات والخطرات، وهذا من أعلى درجات التقوى، فلا يصدر منهم عمل إلا ولهم فيه نية خير، وإلا أعرضوا عنه، وحالهم كما قال عنهم ربهم: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

وقد كان الصحابة لهم السبق المعلى في ذلك فهذا إمام العلماء معاذ يقول: إني لأحتسب في نومتي كما أحتسب في قومتي.

وتلك هي حالة المقربين الذين انقلبت المباحات في حقهم إلى طاعات وقربات بالنية، فليس في حقهم مباح متساوي الطرفين، بل أعمالهم راجحة.

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه»؛ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، بَابُ التَّعَوُّذِ مِنْ شَرِّ مَا عُمِلَ وَمِنْ شَرِّ مَا لَمْ يُعْمَلْ (٨ / ٨١) برقم: (٢٧٢٢).

وماذا عن أميرنا الإمام أبي عبد الله في هذا الباب؟! لقد كان له الحظ الأوفر من محاسبته لنفسه، واسمع إلى هذه القصة ففيها والله الذي لا إله إلا الله العجب العجاب، يقول وراقه محمد بن أبي حاتم: «ورأيت الإمام البخاري استلقى على قفاه يومًا -ونحن بفربر- في تصنيفه كتاب (التفسير)، وأتعب نفسه ذلك اليوم في كثرة إخراج الحديث.

فقلت له: إني أراك تقول: إني ما أثبت[1] شيئًا بغير علم قط منذ عقلت. فما الفائدة في الاستلقاء؟

قال: أتعبنا أنفسنا اليوم، وهذا ثغر من الثغور، خشيت أن يحدث حدث من أمر العدو، فأحببت أن أستريح، وآخذ أهبة، فإن غافصنا[2] العدو كان بنا حراك»[3].

بذله للعلم بدون مقابل:

من صفات الأنبياء التي ذكرها الله في كتابه في مواضع عديدة، ولا تكاد تخلو قصة نبي منها، أنهم لا يطلبون على دعوتهم وتبليغهم رسالة ربهم

(١) في تاريخ بغداد: ما أتيت.

(٢) أي: فاجأنا، وأخذنا على غرة منا.

(٣) «تاريخ بغداد «٢ / ١٤»، و تهذيب الأسماء واللغات «١ / ٧٦ / ١» وتهذيب الكمال: «١٧٠»، و طبقات السبكي: «٢ / ٢٢٦»، و مقدمة الفتح: «٤٨١». سير أعلام النبلاء ط الرسالة ١٢/ ٤٤٤.

أي أجـــر من الأجور المادية أو النفعية من أقوامهم، فما يرســـل الله نبيًا من أنبيائه إلا ويكون من أولى الوصايا الربانية ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشـعراء: ١٠٩].ويقـــول رب العزة والجلال لنبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ قُـل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْـهِ أَجْـرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

قَالَ مُحَمَّدُ بنُ أَبِي حَاتِمٍ: «سَمِعْتُ سُلَيْمَ بنَ مُجَاهِدٍ يَقُوْلُ: مَا بَقِيَ أَحَدٌ يُعَلِّمُ النَّاسَ الحَدِيْثَ حِسْبَةً غَيْرُ مُحَمَّدِ بنِ إِسْمَاعِيْلَ، وَرَأَيْتُ سُلَيْمَ بنَ مُجَاهِدٍ يَسْأَلُ أَبَا عَبْدِ الله أَنْ يُحَدِّثَهُ كُلَّ يَوْمٍ بِثَلاَثَةِ أَحَادِيْثَ، وَيُبَيِّنَ لَهُ مَعَانِيهَا وَتفَاسِـــيرِهَا وَعِلَلِهَا.

فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ قدرَ مُقَامِهِ.

وَكَانَ أَقَامَ فِي تِلْكَ الدفعَةِ جُمْعَةً»[1].

وكيف لا يكون كذلك وقد زهـــد في الدنيا ورغب في الآخرة، فلم يبع دينه بدنياه، فلم يبيع ولا يشتري، ولم يكاتب سلطانًا ولا أميرًا في حاجة من حوائج الدنيا.

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة ١٢/ ٤٤٩.

قَالَ مُحَمَّدُ بنُ أَبِي حَاتِمٍ: «وضيَّفَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ فِي بســتَانٍ لَهُ، وضيَّفَنَا مَعَهُ، فَلَمَّا جَلَسْــنَا أَعجبَ صَاحِبَ البُسْتَانِ بُســتَانُهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ عَمِلَ مَجَالِسَ فِيْهِ، وَأَجرَى

المَاءَ فِي أَنْهَارِهِ.

فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ الله، كَيْفَ تَرَى؟

فَقَالَ: هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا.

قَالَ: وَكَانَ لأَبِي عَبْدِ الله غَرِيمٌ قَطَعَ عَلَيْهِ مَالاً كَثِيْراً، فَبلغَهُ أَنَّهُ قَدِمَ آمُل، وَنَحْنُ عِنْدَهُ بِفِرَبْر، فَقُلْنَا لَهُ: يَنْبَغِي أَنْ تعبُرَ وَتَأْخُذَهُ بِمَالِكَ.

فَقَالَ: لَيْسَ لَنَا أَنْ نُرَوِّعَهُ.

ثُمَّ بَلَغَ غريْمُهُ مَكَانَهُ بِفِرَبْــر، فَخَرَجَ إِلَى خُوَارزمَ، فَقُلْنَا: يَنْبَغِي أَنْ تَقُوْلَ لأَبِي سَلَمَةَ الكُشَــانِيِّ عَاملِ آمُل ليكَتَبَ إِلَى خُوَارزمَ فِي أَخذِهِ، وَاسْتخرَاجِ حقِّكَ مِنْهُ.

فَقَــالَ: إِنْ أَخَذْتُ مِنْهُم كِتَاباً طمِعُوا مِنِّي فِي كِتَابٍ، وَلَسْــتُ أَبيعُ دينِي بدُنيَايَ.

فَجَهِدْنَا، فَلَمْ يَأْخُذْ حَتَّى كلَّمْنَا السُّلْطَانُ عَنْ غَيْرِ أَمرِهِ.

فَكَتَبَ إِلَى وَالِي خُوَارزمَ.

فَلَمَّا أُبلِغَ أَبَا عَبْدِ الله ذَلِكَ، وَجَدَ وَجْداً شَدِيْدًا.

وَقَالَ: لاَ تكونُوا أَشفقَ عليَّ مِنْ نَفْسِي.

وَكَتَبَ كِتَابــاً، وَأَرْدَفَ تِلْكَ الكُتُبَ بكُتُبٍ، وَكَتَــبَ إِلَى بَعْضِ أَصْحَابِهِ بخُوَارِزْمَ أَنْ لاَ يُتَعرَّضَ لغريمِهِ إِلاَّ بِخَيْرٍ.

فَرَجَعَ غريمُهُ إِلَى آمُل، وَقصَدَ إِلَى نَاحِيَةِ مَرْو.

فَاجْتَمَعَ التُّجَّارُ، وَأُخْبِرَ السُّلْطَانُ بِأَنَّ أَبَا عَبْدِ الله خَرَجَ فِي طَلَبِ غريمٍ لَهُ.

فَأَرَادَ السُّلْطَانُ التَّشــديدَ عَلَى غريمِهِ، وَكَرِهَ ذَلِكَ أَبُو عَبْدِ الله، وَصَالَحَ غريمَهُ عَلَى أَنْ يُعْطِيَهُ كُلَّ سَنَةٍ عَشْرَةُ دَرَاهِم شَيْئاً يَسِيْرًا.

وَكَانَ المَالُ خَمْسَةً وَعِشْرِيْنَ أَلْفًا.

وَلَمْ يصِلْ مِنْ ذَلِكَ المَالِ إِلَى دِرْهَمٍ، وَلاَ إِلَى أَكْثَرِ مِنْهُ .

قَالَ: " وَسَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ الله، يَقُوْلُ: مَا تولَّيْتُ شِرَاءَ شَيْءٍ وَلاَ بَيْعَهُ قَطُّ.

فَقُلْتُ لَهُ: كَيْفَ وَقَدْ أَحلَّ اللهُ البيعَ؟

قَالَ: لِمَا فِيْــهِ مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنُّقصَانِ وَالتخليطِ، فَخشــيتُ إِنْ تولّيتُ أَنْ أَستوِي بغَيرِي.

قُلْتُ: فَمَنْ كَانَ يَتَوَلَّى أَمرُكَ فِي أَسفَارِكَ وَمُبَايَعَتِكَ؟

قَالَ: كُنْتُ أُكْفَى ذَلِكَ»[1].

وهكذا كان سلف الأمة يخافون أشد الخوف من أن يكون دينهم وعلمهم وسيلة لشراء دنياهم، وقد ضربوا لنا أروع الأمثال، ومن ذلك أن محمدا بن يوسف الأصبهاني كان لا يشتري خبزه من خبّاز واحد، يقول: لعلهم يعرفوني، ولكن إذا جئته لأول وهلة لا يعرفُ أني فلان الذي يُسمع عنه، فتقع لي المحاباة، فأكون ممن يعيش بدينه[2].

وعن رجاء بن أبي سلمة: أن ابن محيريز دخل على رجل من البزازين، فاشترى منه شيئًا فقال رجل للبزاز: أتدري من هذا؟ هذا ابن محيريز. فقام فقال: إنما جئنا نشتري بدراهمنا، ليس بديننا[3].

زهده في الرئاسة والشهرة:

من أعظم أسباب الرفعة طلب ما عند الله، والبعد كل البعد عن الرئاسة والشهرة، وهذا من علامات الإخلاص، كما إن من أعظم ما يوجب سقوط

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٤٦).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم ٨/ ٢٣١.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٢١٨)، شعب الإيمان (٧/ ٢٢٩) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٥/ ١٣٩) المعرفة والتاريخ (٢/ ٣٦٤).

العالم، ويصيبه في مقتل، ويفسد عليه إخلاصه: طلب الرئاسة، وحب الظهور والتعالي على عباد الله، وفي الحديث عن كعب بن مالك الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ، بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ**»(١).

قال ابن رجب: «ومن يطلب بالعمل، والعلم، والزهد، الرئاسة على الخلق والتعاظم عليهم، وأن ينقاد الخلق ويخضعوا له ويصرفوا وجوههم إليه، وأن يظهر للناس زيادة علمه على العلماء، أو ليعلوا به عليهم ونحو ذلك، فهذا وعيده النار؛ لأن قصده التكبر على الخلق في نفسه محرم، فإذا استعمل فيه آلة الآخرة، كان أقبح وأفحش من أن يستعمل فيه آلات الدنيا من المال والسلطان. روى الترمذي في سننه من حديث كعب بن مالك: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ**»(٢).

(١) أخرجه الترمذي في «جامعه» (٤ / ١٨٥) برقم: (٢٣٧٦) وأحمد في «مسنده» (٦ / ٣٣٧١) برقم: (١٦٠٢٥)، والنسائي في «الكبرى» (١٠ / ٣٨٦) برقم: (١١٧٩٦) والطبراني في «الكبير» (١٩ / ٩٦) برقم: (١٨٩) قال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) أخرجه الترمذي في «جامعه» (٤ / ٣٩٢) برقم: (٢٦٥٤) والطبراني في «الكبير» (١٩ / ١٠٠) برقم: (١٩٩) والحاكم في «مستدركه» (١ / ٨٦) برقم: (٢٩٢) وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٦٥٤).

وقــد كان الإمام البخاري من أبعد الناس عــن تلك الخصلة الذميمة، قال أحمد بن سلمة: دَخَلْتُ عَلَى البُخَارِيِّ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ الله، هَذَا رَجُلٌ مَقْبُوْلٌ بِخُرَاسَانَ خصوصاً فِي هَذِهِ المَدِيْنَةِ، وَقَدْ لَجَّ فِي هَذَا الحَدِيْثِ حَتَّى لاَ يَقْدِرَ أَحَدٌ منَّا أَنْ يُكَلِّمَهُ فِيْهِ، فَمَا تَرَى؟

فَقبــضَ عَلَى لِحْيَتِــهِ، ثُــمَّ قَــالَ: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤]. اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أُرِدِ المقَامَ بِنَيْسَــابُوْرَ أَشَراً وَلاَ بَطراً، وَلاَ طَلَباً للرِّئاسَــةِ، وَإِنَّمَا أَبَتْ عليَّ نَفْسِي فِي الرُّجُوعِ إِلَى وَطَنِي لِغَلَبَةِ المُخَالِفِينَ، وَقَدْ قَصَدَنِي هَذَا الرَّجُلُ حَسَداً لَمَّا آتَانِي اللهُ لاَ غَيْر.

ثُمَّ قَالَ لِي: يَا أَحْمَدُ، إِنِّي خَارِجٌ غَداً لتتخلَّصُوا مِنْ حَدِيْثِهِ لأَجلِي[1].

وكان ربما ســاومه بعضهم ليرجع عن الحق الذي يراه مقابل أن يرجع الناس إليه، ظناً منهم أنه يطلب ذلك، فهل تراه يقبل عرضهم؟! حاشــاه، قال الفرهباني: قيل لمحمد بن إسماعيل: ترجع عما قلت ليعود الناس إليك. فقال: لا حاجة لي فيهم[2].

وهذا يحيى بن ســعيد يقول عندما انفض النــاس عن الإمام البخاري فقالوا له بعد ذاك: ترجِعُ عَنْ هَذَا القَوْلِ، حَتَّى نعُودَ إِلَيْكَ؟

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٢/ ٩٤)، سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٥٩).

(٢) المعلم بشيوخ البخاري ومسلم (ص: ٢١).

قَالَ: لاَ أَفعلْ إِلاَّ أَنْ تَجِيئُوا بحجَّةٍ فِيمَا تقولُونَ أَقْوَى مِنْ حُجَّتِي.

وَأَعجبَنِي مِنْ مُحَمَّدِ بنِ إِسْمَاعِيْلَ ثَبَاتُهُ [1].

استواء المدح والذم من العامة:

ومن علامات الإخـــلاص عدم الاكتراث بمدح الناس أو ذمهم، فمن كان يرجو أجره من الله فلا عليه من مدح ومن ذم، وهذا ما قرره ذو النون فقال: «ثلاث من علامات الإخلاص: اســتواء المــدح والذم من العامة، ونسيان رؤية العمل في الأعمال، واقتضاء ثواب الأعمال في الآخرة»[2].

وقد كان للإمام البخــاري النصيب الأوفى والمحل الأعلى في ذلك قال إبراهيم بن مغفل: «رَأَيْتُ مُحَمَّدَ بنَ إِسْــمَاعِيْلَ فِي اليَوْمِ الَّذِي أُخرِجَ فِيْهِ مِنْ بُخَارَى، فَتقدَّمْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ الله، كَيْفَ تَرَى هَذَا اليَوْمَ مِنَ اليَوْمِ الَّذِي نُثِرَ عَلَيْكَ فِيْهِ مَا نُثِرَ؟

فَقَالَ: لاَ أُبَالِي إِذَا سَلِمَ دينِي»[3].

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٥٤).

(٢) الغنية لطالبي طريق الحق للجيلاني (٢/ ١١٢).

(٣) المعلم بشيوخ البخاري ومسلم (ص: ٢٥)، سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٦٣).

ورعه:

إن الورع من ثمار خشية رب العالمين، وهو من صفات السابقين المقربين، ومن خير ما يتدين به العبد لمولاه الملك الحق المبين، ففي حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**.. خير دينكم الورع**»[1]، وأعبد الناس هم الورعون كما في حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ**»[2].

وقد كان للإمام البخاري القدر المعلى من ذلك فقد كان من أورع الناس، قال سليم بن مجاهد: «ما رأيت بعيني منذ ستين سنة أفقه، ولا أورع، ولا أزهد في الدنيا من الإمام البخاري»[3].

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٩ / ٤٧٣) برقم: (٣٦٧٥٠) والبزار في «مسنده» (٧ / ٣٧١) برقم: (٢٩٦٩) والطبراني في «الأوسط» (٤ / ١٩٦) برقم: (٣٩٦٠) والحاكم في «مستدركه» (١ / ٩٢) برقم: (٣١٣) وقال: صحيح على شرطهما. وقال المنذري في الترغيب (١/ ٩٣): حسن. وله شواهد كثيرة لعله يصح بها.

(٢) أخرجه الترمذي في «جامعه» (٤ / ١٤٠) برقم: (٢٣٠٥) وابن ماجه في «سننه» (٥ / ٢٨٥) برقم: (٤١٩٣) وأحمد في «مسنده» (٢ / ١٧٠٤) برقم: (٨٢١٠)، وحسنه البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ٢٤٠).

(٣) سير أعلام النبلاء ط الرسالة ١٢/ ٤٤٩.

بل كان يُشبَّه في الورع والصدق بعمر بن الخطاب في الصحابة قال قتيبة: «مثل البخاري عند الصحابة في صدقه وورعه كما كان عمر في الصحابة»[1].

وللإمام البخاري مواقف تدل على منزلته الرفيعة، ومكانته المنيفة في الورع عن المحرمات، واتقاء الشبهات، وإليك مقتطفات منها:

من قصص ورعه العجيبة:

وَقَالَ مُحَمَّدُ بنُ أَبِي حَاتِمٍ: «ركبنَا يَوْماً إِلَى الرَّمْيِ، وَنَحْنُ بِفِرَبْر، فَخَرَجْنَا إِلَى الدَّربِ الَّذِي يُؤدِّي إِلَى الفُرْضَةِ.

فجعلنَا نَرمِي، وَأَصَابَ سَهْمُ أَبِي عَبْدِ الله وتِدَ القنطرَةِ الَّذِي عَلَى نهرِ وَرَّادَةَ، فَانْشَقَّ الوَتِدُ.

فَلَمَّا رَآهُ أَبُو عَبْدِ الله نَزَلَ عَنْ دَابَّتِهِ، فَأَخْرَجَ السَّهمَ مِنَ الوَتِدِ، وَترك الرَّمْيَ.

وَقَالَ لَنَا: ارجِعُوا.

وَرجَعْنَا مَعَهُ إِلَى المَنْزِلِ، فَقَالَ لِي: يَا أَبَا جَعْفَرٍ، لِي إِلَيْك حَاجَةٌ تقضيهَا؟

قلتُ: أَمْرُكَ طَاعَةٌ.

(١) المصدر السابق ١٢/ ٤٣١.

قَالَ: حَاجَةٌ مُهِمَّةٌ، وَهُوَ يتنفَّسُ الصُّعَدَاءَ.

فَقَالَ لِمَنْ مَعَنَا: اذهبُوا مَعَ أَبِي جَعْفَرٍ حَتَّى تُعِينوهُ عَلَى مَا سَأَلْتُهُ.

فَقُلْتُ: أَيَّةُ حَاجَةٍ هِيَ؟

قَالَ لِي: تضمنُ قَضَاءهَا؟

قُلْتُ: نَعَمْ، عَلَى الرَّأْسِ وَالعَيْنِ.

قَالَ: يَنْبَغِي أَنْ تَصِيرَ إِلَى صَاحِبِ القنطرَةِ، فَتَقُوْلَ لَهُ: إِنَّا قَدْ أَخللنَا بِالوَتِدِ، فَنُحِبُّ أَنْ تَأْذَنَ لَنَا فِي إِقَامَةِ بَدَلِهِ، أَوْ تَأْخُذَ ثَمَنَهُ، وَتجعلنَا فِي حِلٍّ مِمَّا كَانَ منَّا، وَكَانَ صَاحِبَ القنطرَةِ حُمَيْدُ بنُ الأَخضرِ الفِرَبْرِيُّ.

فَقَالَ لِي: أَبلغْ أَبَا عَبْدِ الله السَّلاَمَ، وَقُلْ لَهُ: أَنْتَ فِي حِلٍّ مِمَّا كَانَ مِنْكَ، وَقَالَ جَمِيْعُ مُلْكِي لَكَ الفدَاءُ، وَإِنْ قُلْتُ: نَفْسِي، أَكُوْنُ قَدْ كذبْتُ غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أُحِبُّ أَنْ تحتَشِمنِي فِي وَتِدٍ أَوْ فِي مُلكِي.

فَأَبلغتُهُ رسَالَتَهُ، فَتهلَّلَ وَجْهُهُ، وَاسْتنَارَ، وَأَظْهَرَ سُرُوْرًا، وَقَرَأَ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ عَلَى الغُربَاءِ نَحواً مِنْ خَمْسِ مائَةِ حَدِيْثٍ، وَتصدَّقَ بِثَلاَثِ مائَةِ دِرْهَمٍ»[1].

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٤٤:٤٤٣).

ورعه في تركه للبيع والشراء:

فقد كان لا يبيع ولا يشتري بنفسه؛ بل يوكل من يشتري له ويبيع خشية من الوقوع في الحرج بالزيادة في الأثمان أو النقصان، ولكثرة مواطن الشبه في المعاملات: قال وراقه محمد بن أبي حاتم: وَسَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ الله، يَقُوْلُ: مَا تولَّيْتُ شِرَاءَ شَيْءٍ وَلاَ بَيْعَهُ قَطُّ.

فَقُلْتُ لَهُ: كَيْفَ وَقَدْ أَحلَّ اللهُ البيعَ؟

قَالَ: لِمَا فِيْهِ مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنُّقصَانِ وَالتخليطِ، فَخشيتُ إِنْ تولّيتُ أَنْ أَستوِي بغَيرِي.

قُلْتُ: فَمَنْ كَانَ يَتَوَلَّى أَمرُكَ فِي أَسفَارِكَ وَمُبَايَعَتِكَ؟

قَالَ: كُنْتُ أُكْفَى ذَلِكَ»[1].

ورعه من السخرية بالناس ولو بابتسامة:

ومن عجيب ورعه ما رواه عنه وراقه محمد بن أبي حاتم قَالَ: «وَسَمِعْتُهُ يَقُوْلُ لأَبِي مَعْشَرٍ الضَّرِيْرِ: اجعلنِي فِي حلٍّ يَا أَبَا مَعْشَرٍ.

فَقَالَ: مِنْ أَيِّ شَيْءٍ؟

(١) فتح الباري لابن حجر (١/ ٤٧٩)، سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٤٦).

قَالَ: رويتُ يَوْماً حَدِيْثاً، فَنَظَـرْتُ إِلَيْكَ، وَقَدْ أُعْجِبتَ بِهِ، وَأَنْتَ تُحرِّكُ رأْسَكَ وَيَدَكَ، فَتبسَّمْتُ مِنْ ذَلِكَ.

قَالَ: أَنْتَ فِي حِلٍّ، رَحِمَكَ اللهُ يَا أَبَا عَبْدِ الله»[1].

وأما ورعه في حفظ لسانه فكان آية من آيات الله:

فإن اللسـان من أعظم آفات الإنسـان التي توجب له الهلاك والنيران كما في الحديث عن ابن مسـعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَكْثَرُ خَطَايَا ابْنِ آدَمَ فِي لِسَانِهِ»[2]، وحديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه: «فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ فَقَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا. قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟! قَالَ: "ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أَوْ قَالَ: عَلَى مَنَاخِرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟»[3].

كما أن حفظ اللسـان ومراقبته وصيانته عن الحرام والهذيان من أعظم صفات المؤمنين الصادقين، والمتقين المقربين، خاصة إذا كان الإنسان محتاجًا

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٤٤).

(٢) أخرجـه الطبراني في «المعجـم الكبـير» (١٠/ ١٩٧) برقـم: (١٠٤٦٦) والبيهقي في «الشـعب» (٤/ ٢٤٠) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجالـه رجال الصحيح (١٠ / ٢٩٩).

(٣) أخرجه النسائي في «المجتبى» (١ / ٤٥٣) برقم: (٢٢٢٣ / ٥)، والترمذي في «جامعه» (٤ / ٣٦٢) برقـم: (٢٦١٦) وابن ماجه في «سـننه» (١ / ٥٢) برقم: (٧٢)، وأحمد في «مسنده» (١٠ / ٥١٦٤) برقم: (٢٢٤٣٩) قال الترمذي: حسن صحيح.

إلى بيان أحوال الناس من أجل الحفاظ على سنة خير المرسلين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد ضرب لنا الإمـــام البخاري أروع الأمثال والنـــماذج في المحافظة على لســـانه وَقَالَ بَكْرُ بنُ مُنِيْرٍ: «سَـــمِعْتُ أَبَا عَبْدِ الله البُخَارِيَّ يَقُوْلُ: أَرْجُو أَنْ أَلقَى اللهَ وَلاَ يحَاسبنِي أَنِّي اغتبتُ أَحَدًا.

قـــال الذهبي معلقا على ذلـــك: «صَدَقَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَمَن نظَـــرَ فَى كَلاَمِهِ فِي الجرحِ وَالتعديلِ عَلِمَ وَرعَهُ فِي الـــكَلاَمِ فِي النَّاسِ، وَإِنصَافَهُ فِيْمَنْ يُضَعِّفُهُ، فَإِنَّهُ أَكْثَر مَا يَقُوْلُ: مُنْكَرُ الحَدِيْثِ، سَكَتُوا عَنْهُ، فِيْهِ نظرٌ، وَنَحْو هَذَا. وَقَلَّ أَنْ يَقُوْلَ: فُلاَنٌ كَذَّابٌ، أَوْ كَانَ يَضَعُ الحَدِيْثَ.

حَتَّى إِنَّهُ قَالَ: إِذَا قُلْتُ: فُلاَنٌ فِي حَدِيْثِهِ نَظَرٌ، فَهُوَ مُتَّهَمٌ وَاهٍ.

وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: لاَ يُحَاســـبُنِي اللهُ أَنِّي اغتبْتُ أَحَدًا، وَهَذَا هُوَ وَالله غَايَةُ الوَرَعِ»[1].

وهذه محاســـبة لا مثيل لها إذ من يستطيع أن يجزم هذا الجزم إلا من كان يستحضر كل لحظة أنه ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨]. وفي قوله ذلك دلالة على حياة قلبه، وصفاء روحه، وأنه كان وقافًا لنفســـه، مترصدًا للسانه من أن يقع في أعراض الناس.

(١) (١٢/ ٤٤١).

وقد بين لهم ما قد يستشكله بعض الناس من كلامه في الرجال فقال قَالَ مُحَمَّدُ بنُ أَبِي حَاتِمٍ الوَرَّاقُ: سَمِعْتُهُ -يَعْنِي: البُخَارِيَّ- يَقُوْلُ: «لاَ يَكُوْنُ لِي خصمٌ فِي الآخِرَةِ، فَقُلْتُ: إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَنْقِمُونَ عَلَيْكَ فِي كِتَابِ (التَّارِيْخ) وَيَقُوْلُوْنَ: فِيْهِ اغتيَابُ النَّاسِ، فَقَالَ: إِنَّمَا روينَا ذَلِكَ رِوَايَةً لَمْ نَقُلْهُ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِنَا، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بِئْسَ مَوْلَى العَشِيْرَةِ**»[1] يَعْنِي: حَدِيْث عَائِشَةَ[2].

خشيته من الله أن لا يكون قال ما يراه حقًا:

من أسرار عظمته، تعظيمه لربه وخشيته منه، فكان يقول الحق طلبًا لرضا مولاه ولو كان في ذلك أذية له، أو إضرار، أو كيد، ولا عجب فهذا حال العلماء الذين قال الله عنهم أنهم يخشون الله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، ولن يمنعهم من قول الحق مخالفة البشر كلهم، فهدفهم هو مرضاة الله، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [فاطر: ٢٨]، ورضا الأمة عن البخاري وصحيحه يدل على أن البخاري لم يكن ممن يطلب رضا الناس بسخط الله، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنِ الْتَمَسَ رِضَى اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللهُ**

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٨ / ١٣) برقم: (٦٠٣٢)، ومسلم في «صحيحه» (٨ / ٢١) برقم: (٢٥٩١).

(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٢/ ٤٣٩)

عَنْهُ، وَأَرْضَى النّاسَ عَنْهُ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النّاسِ بِسَخَطِ الله سَخَطَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النّاسَ»[1]، ولعل في هذا الموقف ما يجلى لنا هذه الصفة العظيمة التي اتصف بها الإمام البخاري عندما شغب عليه شيخه الذهلي وكاد له خرج البخاري من بلدته إلى مرو، فاستقبله ثلة من العلماء، وكان منهم أحمد بن سيار فَقَالَ لَهُ أَحْمَدُ: «يَا أَبَا عَبْدِ الله، نَحْنُ لاَ نُخَالِفُكَ فِيمَا تَقُوْلُ، وَلَكِنَّ العَامَّةَ لاَ تحملُ ذَا مِنْكَ.

فَقَالَ البُخَارِيُّ: إِنِّي أَخشَى النَّارَ، أُسْأَلُ عَنْ شَيْءٍ أَعْلَمُهُ حقاً أَنْ أَقُوْلَ غَيْرَهُ.

فَانْصَرَفَ عَنْهُ أَحْمَدُ بنُ سَيَّارٍ»[2].

من أسرار عظمته اهتمامه بجسده وصحته

كما أن الاهتمام بالروح وتزكيتها من أهم المهمات فكذلك الاهتمام بالجسد؛ لأنه الوسيلة لبلوغ مرضاة الله فـ «المُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى الله مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ»[3]، فبالجسد القوي يقوم سوق الجهاد في سبيل

(١) أخرجه الترمذي في «جامعه» (٤ / ٢١٣) برقم: (٢٤١٤) من حديث عائشة، وابن حبان في «صحيحه» (١ / ٥١٠) برقم: (٢٧٦) وجوده ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ١٦٤) وصححه ابن حجر على شرط الشيخين في الأمالي المطلقة (١١٩).

(٢) المعلم بشيوخ البخاري ومسلم (ص: ٢٣)، سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٦٢).

(٣) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٨ / ٥٦) برقم: (٢٦٦٤).

الله، ويطيل المتهجد في قيام الليل الذي هو أحب القيام إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وبه يستطيع الرحلة في طلب الحديث، **وقد كان البخاري مهتمًا بصحته وقوته ولياقته ومما يدل على ذلك أمور:**

١- رحلاته في طلب العلم التي قطع فيها قرابة ٣٠ ألف كيل، ولا يكون ذلك إلا من قوي الجسد.

٢- أنه كان إذا مشى مع أصحابه أو طلابه لا يسبقه أحد كما يقول وراقه[١]، ولا شك أن هذا لا يكون إلا لشخص قد بلغ من اللياقة مبلغها.

٣- أنه كان من أمهر الرماة قال: كان الإمام البخاري يركب إلى الرمي كثيرًا، فما أعلمني رأيته في طول ما صحبته أخطأ سهمه الهدف إلا مرتين، بل كان يصيب الهدف في كل ذلك[٢].

٤- أنه كان يشاركهم في البناء كما في الرباط الذي شاركهم في بناءه، وهذا لا يكون إلا للأقوياء.

وهذا يدل على فقه الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ وإبرازه لجانب التكامل والتوازن الذي في هذا الدين بمثل هذا البرنامج العملي الذي كان يجسد تلك السمة في الشريعة الإسلامية بلا غلو ولا جفا.

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٢/ ٤٤٤).

(٢) الوافي بالوفيات للصفدي (٢/ ١٤٩).

من أسرار عظمته

كريم أخلاقه

ومن أسرار عظمة الإمـــام البخاري صفة لا تنال العظمة التامة إلا بها، إنها تلك الصفة التي كان رســـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متصفًا بها على أكمل وجه وهي ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤] .هـــذه الصفة التي قال عنها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ**»[(١)]. وقال: «**أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَحَبِّكُمْ إِلَيّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًـــا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ ثَلَاثَ مَرّاتٍ يَقُولُهَا، قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ الله. قَالَ: أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا**»[(٢)].

فكمال الأخلاق من أكبر أسرار العظمة، ولم يكن الإمام الذي قد عاش مع الســـنة النبوية، وحفظ تلك التفاصيل الدقيقة عن أخلاق رســـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يكون بمنأى عنها، بل كان متصفًا بها على أكمل وجه، كيف لا وقـــد ألف كتابا أفرد فيه أدب النبـــي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخلاقه؟! وهذا حال

(١) أخرجه أبو داود في «ســـننه» (٤ / ٤٠٠) برقم: (٤٧٩٩)، والترمذي في «جامعه» (٣ / ٥٣٥) برقم: (٢٠٠٢)، وأحمد في «مسنده» (١٢/ ٦٧٠٢) برقم: (٢٨١٤٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٢ / ٢٣٠) برقم: (٤٨١)، قال الترمذي: حسن صحيح. وقال العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٤٧): حسن أو صحيح.

(٢) أخرجه أحمد في «مســـنده» (٣ / ١٤١٧) برقم: (٦٨٥٠) مـــن حديث أبي ثعلبة، وابن حبـــان في «صحيحه» (٢ / ٢٣٥) برقـــم: (٤٨٥) وصححه البوصيري في إتحاف الخيرة (٦/ ١١).

المحدثين، كانوا يتمثلون سنة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهديه في كل شؤونهم، ويقتدون به في كل أمورهم فاكتسبوا هذه الرفعة وهذه العظمة التي قلما تكون لشخص، ولا عجب فإنه كلما قرأ الإنسان لشخص تأثر بسيرته وحياته وأخلاقه، فقل لي لمن تقرأ، وبمن تهتم، وتعجب، أقول لك من تكون.

فالمحدثون ليس لهم همٌّ إلا قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ شهدت رسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فعل صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فماذا سيكون حالهم؟!

أهل الحديث همُ أهل النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وإنْ ...لم يصحبوا نفسه أنفاسَه صحبوا فماذا كان من كريم أخلاق الإمام البخاري، وجميل خصاله؟!

سنذكر في هذه العجالة نبذًا يسيرة من تلك الأخلاق الفاضلة العظيمة:

سخاؤه وكرمه:

ضرب لنا أروع الأمثل في السخاء والكرم يقول وراقه: وكان يتصدق بالكثير، ثم كان يتفقد أهل الحديث المفاليس الذي تفرغوا لأحاديث النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فيأخذ بيد صاحب الحاجة منهم، فيناوله ما بين العشرين إلى الثلاثين، وأقل وأكثر، وكل ذلك وهو لا يُشعر أحداً بذلك.

وكان لا يفارقه كيسه لكي يكرم أهل الحديث أهل النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ورأيته ناول رجلًا مرارًا صرة فيها ثلاث مائة درهم - وذلك أن الرجل

أخــبرني بعدد ما كان فيها من بعد - فــأراد أن يدعو، فقال له أبو عبد الله: ارفق، واشتغل بحديث آخر كيلا يعلم بذلك أحد[1].

تواضعه في خدمة الدين:

ما ارتفع من ارتفع من هذه الأمــة إلا بتواضعه لربه، وما انخفض من انخفض إلا بتكبره على ربه، وذلــك لأن الله قضى بأن الرفعة لا تكون إلا بقدر التواضع فلما كان رسولنا من أكثر العباد تواضعًا لرب العباد رفعه الله إلى أعلى الدرجات في هذه الدنيا والآخــرة، ففي الحديث: «**مَنْ تَوَاضَعَ لِلّٰهِ دَرَجَةً يَرْفَعْهُ اللّٰهُ دَرَجَةً**»[2].

ومــاذا كان حال الإمام البخاري؟ لا شــك أنه ما نــال هذه المرتبة إلا بتواضعه لربه، وقد كان يقتفي خطوات رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعندما نزل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة مهاجراً من مكة، وبدأ ببناء المسجد، لم يترك صحابته منفردين ببنيانه، بل كان من السباقين في بذل نفسه خدمةً لدين رب العالمين ففي الحديث: «لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ، نَزَلَ فِي عُلْوِ الْمَدِينَةِ، فِي

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٢/ ٤٥١).

(٢) أخرجــه ابن ماجه في «ســننه» (٥ / ٢٧٤) برقم: (٤١٧٦) وأحمد في «مســنده» (٥ / ٢٣٤٤) برقــم: (١١٤٠٠)، وابن حبان في «صحيحــه» (١٢ / ٤٩١) برقم: (٥٦٧٨) والحاكم في «مستدركه» (٤ / ٣١٤) برقم: (٧٩٧٢) وحسنه ابن حجر في الأمالي المطلقة (٨٩).

حَيٍّ يُقَالُ لَهُمْ: بَنُو عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ،... قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ أَمَرَ بِبِنَاءِ الْمَسْجِدِ،...، قَالَ: فَصَفُّوا النَّخْلَ قِبْلَةَ الْمَسْجِدِ، قَالَ: وَجَعَلُوا عِضَادَتَيْهِ حِجَارَةً، قَالَ: جَعَلُوا يَنْقُلُونَ ذَاكَ الصَّخْرَ وَهُمْ يَرْتَجِزُونَ، وَرَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهُمْ، يَقُولُونَ: **اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الْآخِرَهْ فَانْصُرِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَهْ**»[1].

وهكذا سار الإمام البخاري على خلق حبيبه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان يبذل نفسه في بناء الأوقاف، قال وراقه: كنا بفربر وكان أبو عبد الله يبني رباطًا مما يلي بخارى، فاجتمع بشر كثير يعينونه على ذلك، وكان ينقل اللبن، فكنت أقول له: يا أبا عبد الله، إنك تُكفى ذلك. فيقول: هذا الذي ينفعني. قال: وكان ذبح لهم بقرة، فلما أدركت القدور دعا الناس إلى الطعام فكان معه مائة نفس أو أكثر، ولم يكن علم أنه يجتمع ما اجتمع، وكنا أخرجنا معه من فربر خبزًا بثلاثة دراهم، وكان الخبز إذ ذاك خمسة أمنان بدرهم، فألقيناه بين أيديهم فأكل جميع من حضر، وفضلت أرغفة صالحة، وقال: وكان قليل الأكل جدًا، كثير الإحسان إلى الطلبة، مفرط الكرم[2].

فهكذا هي السنة النبوية يا كرام تفعل الأفعال في أخلاق الرجال، وتنشئ جيلاً عظيم المبادئ والقيم، نبيل الخصال والشيم.

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (١ / ٥٦) برقم: (٢٣٤) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) فتح الباري لابن حجر (١/ ٤٨١).

عفوه وصفحه:

وَكَانَ لأَبِي عَبْدِ الله غَرِيمٌ قَطَعَ عَلَيْهِ مَالاً كَثِيْراً، فَبلغَهُ أَنَّهُ قَدِمَ آمُل، وَنَحْنُ عِنْدَهُ بِفِرَبْر، فَقُلْنَا لَهُ: يَنْبَغِي أَنْ تعبُرَ وَتَأْخُذَهُ بِمَالِكَ.

فَقَالَ: لَيْسَ لَنَا أَنْ نُرَوِّعَهُ.

ثُمَّ بَلَغَ غريْمُهُ مَكَانَهُ بِفِرَبْـر، فَخَرَجَ إِلَى خُوَارزمَ، فَقُلْنَا: يَنْبَغِي أَنْ تَقُوْلَ لأَبِي سَلَمَةَ الكُشَـانِيِّ عَاملِ آمُل ليكَتَبَ إِلَى خُوَارزمَ فِي أَخذِهِ، وَاسْتخرَاجِ حقِّكَ مِنْهُ.

فَقَـالَ: إِنْ أَخَذْتُ مِنْهُم كِتَاباً طمِعُوا مِنِّي فِي كِتَابٍ، وَلَسْـتُ أَبيعُ دينِي بدُنيَاي.

فَجَهِدْنَا، فَلَمْ يَأْخُذْ حَتَّى كلَّمْنَا السُّلْطَانُ عَنْ غَيْرِ أَمرِهِ.

فَكَتَبَ إِلَى وَالِي خُوَارزمَ.

فَلَمَّا أُبلِغَ أَبَا عَبْدِ الله ذَلِكَ، وَجَدَ وَجْداً شَدِيْدًا.

وَقَالَ: لاَ تكونُوا أَشفقَ عليَّ مِنْ نَفْسِي.

وَكَتَبَ كِتَابـاً، وَأَرْدَفَ تِلْكَ الكُتُبَ بكُتُبٍ، وَكَتَـبَ إِلَى بَعْضِ أَصْحَابِهِ بخُوَارِزْمَ أَنْ لاَ يُتَعرَّضَ لغريمِهِ إِلاَّ بِخَيْرٍ.

فَرَجَعَ غريمُهُ إِلَى آمُل، وَقصَدَ إِلَى نَاحِيَةِ مَرْو.

فَاجْتَمَعَ التُّجَّارُ، وَأُخْبِرَ السُّلْطَانُ بِأَنَّ أَبَا عَبْدِ الله خَرَجَ فِي طَلَبِ غريمٍ لَهُ.

فَأَرَادَ السُّلْطَانُ التَّشـديدَ عَلَى غريمِهِ، وَكَرِهَ ذَلِكَ أَبُو عَبْدِ الله، وَصَالَحَ غريمَهُ عَلَى أَنْ يُعْطِيَهُ كُلَّ سَنَةٍ عَشْرَةُ دَرَاهِم شَيْئاً يَسِيْرًا.

وَكَانَ المَالُ خَمْسَةً وَعِشْرِيْنَ أَلْفًا.

وَلَمْ يصِلْ مِنْ ذَلِكَ المَالِ إِلَى دِرْهَمٍ، وَلاَ إِلَى أَكْثَرِ مِنْهُ[1].

سماحته وطيب نفسه:

يقول رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رَحِمَ اللهُ رَجُلًا، سَـمْحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى**»[2].

فهل كان للبخاري حظ من هذا الحديث؟ يقول محمد بن أبي حاتم قال كَانَ حُمِلَ إِلَى البُخَـارِيِّ بِضَاعَةٌ أَنفذَهَا إِلَيْهِ ابْنُهُ أَحْمَدُ، فَاجْتَمَعَ بَعْضُ التُّجَّارِ إِلَيْهِ.

فَطَلَبُوهَا بربحِ خَمْسَةِ آلاَفِ دِرْهَمٍ.

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٤٦).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»؛ كتاب البيوع، بَابُ السُّهُولَةِ وَالسَّمَاحَةِ فِي الشِّرَاءِ وَالبَيْعِ، وَمَنْ طَلَبَ حَقًّا فَلْيَطْلُبْهُ فِي عَفَافٍ (٣ / ٥٧) برقم: (٢٠٧٦).

فَقَالَ: انْصَرَفُوا اللَّيْلَةَ.

فَجَاءهُ مِنَ الغَدِ تُجَّارٌ آخرُوْنَ، فَطَلَبُوا مِنْــهُ البِضَاعَةَ بربحِ عَشْرَةِ آلاَفٍ. فَقَالَ: إِنِّي

نَوَيْتُ بيعَهَا للَّذين أَتَوا البَارِحَةَ»[1].

رفقه ولطفه:

قال وراقه: وكان أبو عبد الله يصلي في وقت السحر ثلاث عشرة ركعة، وكان لا يوقظني في كل ما يقوم.

فقلت: أراك تحمل على نفسك، ولم توقظني. قال: أنت شاب، ولا أحب أن أفسد عليك نومك[2].

قــال: وأملى يومًا عــليَّ حديثًا كثيرًا، فخاف ملالي، فقال: طب نفسًــا، فــإن أهل الملاهي في ملاهيهم، وأهل الصناعــات في صناعاتهم، والتجار في تجاراتهم، وأنت مــع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه. فقلت: ليس شيء من هذا، يرحمك الله إلا وأنا أرى الحظ لنفسي فيه[3].

(١) (١٢/ ٤٤٨:٤٤٧).

(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٢/ ٤٤١).

(٣) المصدر السابق (١٢/ ٤٤٥).

من أسرار عظمته

عبادته وخشوعه

عبادته

ولأن التقــرب إلى الله بأنواع العبادات فرائضهــا ونوافلها هو الطريق الموصلة إلى ولاية الله فقد كان رحمه الله على قدر عال من الإقبال على التعبد والتهجد وتلاوة كتاب الله ســيما في شــهر القرآن فإنه كان في أول ليلة من شــهر رمضان يجتمع إليه أصحابه فيصلي بهــم، فيقرأ في كل ركعة عشرين آيةً، وكذلك إلى أن يختم القرآن، وكذلك يقرأ في الســحر، ما بين النصف إلى الثلث من القرآن، فيختم عند الســحر، في كل ثلاث ليال، وكان يختم بالنهار كل يوم ختمةً، ويكون ختمــه عند الإفطار كل ليلة، ويقول: عند كل ختمة دعوة مستجابة[1].

خشوعه بين يدي ربه

مــن صفات المؤمنين التي صدر بها رب العالمين ســورة المؤمنون: أنهم في صلاتهم خاشــعون، وقد كان المحدثون يعتبرون الخشوع في الصلاة من شروط أخــذ الحديث عن الراوي كما كان يفعــل ذلك الإمام مالك حيث

(١) تاريخ بغداد ١٢ / ٢، طبقات الحنابلة ٢/ ٢٧٥، تاريخ دمشــق ٤٨ تهذيب الكمال ٤٤ / ٢٦، سير أعلام النبلاء ١٢/ ٦٣٨. ٤٤٩، طبقات الشافعية للسبكي شعيب الإيمان للبيهقي سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٢/ ٤٣٩).

كان ينظر في صلاة الرجل؛ فإن رآه يحسن صلاته أخذ عنه الحديث وإلا لم يأخذ عنه.

وقد كان الإمام البخاري سيد الخاشعين في وقوفه بين يدي رب العالمين حتى ولو تعرض لألم شديد، ذكر وراقه مُحَمَّدُ بنُ أَبِي حَاتِمٍ: أنه كَانَ يُصَلِّي ذَاتَ لَيْلَةٍ، فلسعَهُ الزُّنْبُورُ سَبْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً.

فَلَمَّا قضَى الصَّلاَةَ، قَالَ: انْظُرُوا أَيش آذَانِي».

وَقَالَ: «دُعِيَ مُحَمَّدُ بنُ إِسْمَاعِيْلَ إِلَى بُسْتَانِ بَعْضِ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا صَلَّى بِالقَوْمِ الظُّهْرَ، قَامَ يتطوَّعُ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلاَتِهِ، رفعَ ذيلَ قمِيصِهِ، فَقَالَ لبَعْضِ مَنْ مَعَهُ: انظُرْ هَلْ تَرَى تَحْتَ قمِيصِي شَيْئاً؟ فَإِذَا زنبورٌ قَدْ أَبَرَهُ فِي ستِّةِ عشرَ أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ مَوْضِعًا، وَقَدْ تورمَ مِنْ ذَلِكَ جَسَدُهُ.

فَقَالَ لَهُ بَعْضُ القَوْمِ: كَيْفَ لَمْ تخرجْ مِنَ الصَّلاَةِ أَوَّلَ مَا أَبَرَكَ؟

قَالَ: كُنْتُ فِي سُوْرَةٍ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُتِمَّهَا»[1] !!

ولا تتعجب من هذا فقد كان قدوته في ذلك الصحابة رضوان الله عليهم، فكانوا يعظمون هذه الصلاة أيما تعظيم، ولا يتحركون فيها مهما أصابهم من أذى، حتى ولو اختلجت الأسهم في أجسادهم، فهذا عباد بن

(١) (١٢/ ٤٤٢:٤٤١).

بشر قدوة البخاري أصابته أسهم الأعداء وما أراد قطع الصلاة حتى ولو خرجت روحه لكن خشي على جيش رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ففي الحديث عن جابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ مِنْ نَخْلٍ، فَأَصَابَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ امْرَأَةَ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَلَمَّا انْصَرَفَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَافِلًا، أُتِيَ زَوْجُهَا وَكَانَ غَائِبًا، فَلَمَّا أُخْبِرَ الْخَبَرَ حَلَفَ لَا يَنْتَهِي حَتَّى يُهَرِيقَ فِي أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ دَمًا، فَخَرَجَ يَتْبَعُ أَثَرَ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَزَلَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْزِلًا فَقَالَ: «**مَنْ رَجُلٌ يَكْلَؤُنَا لَيْلَتَنَا هَذِهِ؟**» فَانْتَدَبَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَا: نَحْنُ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ: «**فَكُونَا بِفَمِ الشِّعْبِ**» قَالَ: وَكَانَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ قَدْ نَزَلُوا إِلَى الشِّعْبِ مِنَ الْوَادِي، فَلَمَّا أَنْ خَرَجَ الرَّجُلَانِ إِلَى فَمِ الشِّعْبِ، قَالَ الْأَنْصَارِيُّ لِلْمُهَاجِرِيِّ: أَيُّ اللَّيْلِ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَنْ أَكْفِيَكَهُ أَوَّلَهُ أَوْ آخِرَهُ؟ قَالَ: بَلِ اكْفِنِي أَوَّلَهُ قَالَ: فَاضْطَجَعَ الْمُهَاجِرِيُّ فَنَامَ، وَقَامَ الْأَنْصَارِيُّ يُصَلِّي قَالَ: وَأَتَى زَوْجُ الْمَرْأَةِ، فَلَمَّا رَأَى شَخْصَ الرَّجُلِ عَرَفَ أَنَّهُ رَبِيئَةُ الْقَوْمِ، قَالَ: فَرَمَاهُ بِسَهْمٍ فَوَضَعَهُ فِيهِ، قَالَ: فَنَزَعَهُ فَوَضَعَهُ وَثَبَتَ قَائِمًا يُصَلِّي، ثُمَّ رَمَاهُ بِسَهْمٍ آخَرَ فَوَضَعَهُ فِيهِ، قَالَ: فَنَزَعَهُ فَوَضَعَهُ وَثَبَتَ قَائِمًا يُصَلِّي، ثُمَّ عَادَ لَهُ الثَّالِثَةَ فَوَضَعَهُ فِيهِ فَنَزَعَهُ فَوَضَعَهُ، ثُمَّ رَكَعَ وَسَجَدَ، ثُمَّ أَهَبَّ صَاحِبَهُ، فَقَالَ: اجْلِسْ فَقَدْ أُثْبِتُّ فَوَثَبَ، فَلَمَّا رَآهُمَا الرَّجُلُ عَرَفَ أَنَّهُ قَدْ نَذِرَ بِهِ فَهَرَبَ، فَلَمَّا رَأَى الْمُهَاجِرِيُّ مَا بِالْأَنْصَارِيِّ مِنَ

الدِّمَاءِ قَالَ: سُــبْحَانَ الله! أَفَلَا أَهْبَبْتَنِي أَوَّلَ مَا رَمَاكَ؟ قَالَ: كُنْتُ فِي سُورَةٍ أَقْرَؤُهَــا فَلَمْ أُحِــبَّ أَنْ أَقْطَعَهَا حَتَّى أُنْفِدَهَا، فَلَمَّا تَابَــعَ عَلَيَّ الرَّمْيَ رَكَعْتُ فَآذَنْتُكَ، وَايْمُ الله لَوْلَا أَنْ أُضَيِّعَ ثَغْرًا أَمَرَنِي رَسُــولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحِفْظِهِ لَقَطَعَ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَقْطَعَهَا أَوْ أُنْفِدَهَا»[1].

مستجاب الدعوة:

من المنازل العظيمة الجليلة التي قد يصلها العبد بعد أن تتوفر فيه صفات حميدة اســتجابة الله لدعائه وهي من دلائل حــب الله لعبده ففي الحديث: **«مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَــيْءٍ أَحَبَّ إِلَــيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَــرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْــمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِــي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَــيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»**[2].

(١) أخرجه أبو داود في «سننه» (١ / ٧٧) برقم: (١٩٨) وأحمد في «مسنده» (٦ / ٣١٠٥) برقم: (١٤٩٣٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٣ / ٣٧٥) برقم: (١٠٩٦)، والحاكم في «مستدركه» (١ / ١٥٦) برقم: (٥٥٩)، وقال: حديث صحيح الإسناد. وصححه العيني في عمدة القاري (٣/ ٧٤).

(٢) أخرجــه البخاري في «صحيحــه» (٨ / ١٠٥) برقم: (٦٥٠٢) مــن حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي الحديث: «رُبَّ أَشْعَثَ، مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ»[1].

وهذه المنزلة لا يصلها إلا القليل من العباد، وذلك لما تتطلبه من مجاهدة النفس، ومصابرتها على الدوام على الطاعة، والإقبال عليها برغبة ورهبة، وخوف وطمع.

وقد كان الإمام البخاري من هؤلاء القلائل الذي بلغوا هذه المنزلة، وقد نقل لنا وراقه محمد كلامًا جليلاً فقال: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ يَقُوْلُ: مَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَكُوْنَ بحَالَةٍ إِذَا دَعَا لَمْ يُسْتَجَبْ لَهُ.

فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَةُ أَخِيْهِ بحضرتِي: فَهَلْ تبيَّنْتَ ذَلِكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ مِنْ نَفْسِكَ؛ أَوْ جرَّبْتَ؟

قَالَ: نَعَمْ، دعوتُ رَبِّي عَزَّوَجَلَّ مرَّتينِ، فَاسْتجَابَ لِي، فَلَنْ أُحِبَّ أَنْ أَدْعُوَ بَعْدَ ذَلِكَ، فَلَعَلَّهُ يَنْقُصُ مِنْ حسنَاتِي، أَو يُعَجِّلَ لِي فِي الدُّنْيَا.

ثُمَّ قَالَ: مَا حَاجَةُ الْمُسْلِمُ إِلَى الكذِبِ وَالبُخْلِ؟!![2]

وأما المرة الثالثة التي دعا بها وهي عندما طلب لقاء الله بسبب ما حصل له من حسد الحاسدين وكيد الكائدين، كما سيأتي في وفاته.

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٨ / ٣٦) برقم: (٢٦٢٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٤٨).

من أسرار عظمته

ثناء الأمة عليه

وبعد هذا التطواف في رياض أسرار عظمة إمام الدنيا في زمانه نحط رحالنا عند شهداء الله في الأرض، فننظر ما هي منزلته عندهم؟ وما هي شهادتهم له؟ فالناس الصالحون شهداء الله في أرضه فقد ورد في الصحيح: «مَرُّوا بِجِنَازَةٍ، فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَجَبَتْ. ثُمَّ مَرُّوا بِأُخْرَى فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا شَرًّا، فَقَالَ: وَجَبَتْ. فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا وَجَبَتْ؟ قَالَ: هَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا، فَوَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا، فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الْأَرْضِ»[1].

ومن عاجل بشرى المؤمن في هذه الحياة وضع القبول له في الأرض في حياته، وهذا من كرم الله لأوليائه، كما في حديث أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ»[2].

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٢ / ٩٧) برقم: (١٣٦٧)، ومسلم في صحيحه (٣/ ٥٣)، برقم (٩٤٩) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٨ / ٤٤) برقم: (٢٦٤٢) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد نال الإمام البخاري القبول المنقطع النظير الذي لا يصل إليه إلا القلة من الناس، وسأسوق لك في هذه العجالة بعض كلمات شيوخه وأقرانه وتلاميذه ومن جاء بعدهم التي تبين مكانة هذا الإمام الكبير.

واعلم أن وصف البخاري، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بارتفاع المحل والتقدم في هذا العلم على الأماثل والأقران، متفق عليه فيما تأخر وتقدم من الأزمان، ويكفى في فضله أن معظم من أثنى عليه ونشر مناقبه شيوخه الأعلام المبرزون، والحُذَّاق المتقنون، وإليك قطرة من بحر ثناءهم، وشهادتهم ...، ولنبدأ بشيوخه، ومن أعظم شيوخه إمام الدنيا في العلل الحجة الثبت علي بن المديني فقد ذكروا له قَوْلَ البُخَارِيِّ لِعَلِيِّ بنِ المَدِيْنِيِّ -يَعْنِي: مَا اسْتصغرتُ نَفْسِي إِلاَّ بَيْنَ يَدِي عَلِيِّ بنِ المَدِيْنِيِّ- فَقَالَ عَلِيٌّ: دعُوا هَذَا، فَإِنَّ مُحَمَّدَ بنَ إِسْمَاعِيْلَ لَمْ يَرَ مِثْلَ نَفْسِهِ»[1].

ونثني بالإمام الحافظ محمد بن بشار[2] الملقب بِبُنْدَار[3] وكان يُحبُّ البُخاري ويُقدّرهُ ويفتخر به.

(١) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤٢٠).

(٢) هومحمد بن بشار بن عثمان العبدي أبو بكر البصري كان عالمًا بحديث البصرة متقنًا مجودًا وكان إمام أهل زمانه في العلم والأخباراًتوفي سنة (٢٥٢هـ). ينظر: طبقات الحفاظ للذهبي (٢/ ٧٢) طبقات الحفاظ للسيوطي (ص: ٢٢٦).

(٣) والبندار الحافظ وقد لقب به لأنه كان حافظ الحديث في عصره ببلده.

ومـــن المواقف العجيبة له ما يذكره الإمام البخـــاري بقوله: لَمَّا دَخَلْتُ البَصْرَةَ صِرتُ إِلَى مَجْلِسِ بُنْدَارٍ، فَلَمَّا وَقَعَ بصرُهُ عليَّ، قَالَ: مِنْ أَيْنَ الفَتَى؟

قُلْتُ: مِنْ أَهْلِ بُخَارَى.

فَقَالَ لِي: كَيْفَ تركتَ أَبَا عَبْدِ الله؟

فَأَمســـكتُ، فَقَالُوا لَهُ: يرحمُكَ اللهُ هُوَ أَبُو عَبْـــدِ الله، فَقَامَ، وَأَخَذَ بِيَدِي، وَعَانقَنِي، وَقَالَ: مَرْحَباً بِمَنْ أَفتخِرُ بِهِ مُنْذُ سِنِيْنَ»[1].

وأما إمام أهل الســـنة المبجل الإمام الأحمد فقد قال عنه: «مَا أَخرجتْ خُرَاسَـــانُ مِثْلَ مُحَمَّدِ بنِ إِسْمَاعِيْلَ»[2]. وقال كذلك: «انْتَهَى الحِفْظُ إِلَى أَرْبَعَةٍ مِنْ أَهْلِ خُرَاسَـــان: أَبُو زُرْعَةَ الرَّازِيِّ، وَمُحَمَّدِ بنِ إِسْمَاعِيْلَ البُخَارِيِّ، وَعَبْدِ الله بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّمَرْقَنْدِيِّ، وَالحَسَنِ بنِ شُجَاعٍ البَلْخِيِّ»[3].

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٢٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (٠١٢/ ٤٢١)

(٣) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٢٣)

بل كانوا يرون أنه لو كان في الصحابة لكان له منزلة عظيمه يقول شيخه قتيبة بن سعيد[1]: «لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ فِي الصَّحَابَةِ لكَانَ آيَةً»[2].

وقد سئل قتيبة بن سعيد عن البخاري فنكس رأسه، ثم رفعه إلى السماء، فقال:: يَا هَؤُلاَءِ، نظرْتُ فِي الحَدِيْثِ، وَنظرتُ فِي الرَّأْيِ، وَجَالَسْتُ الفُقَهَاءَ وَالزُّهَادَ وَالعُبَّادَ، مَا رَأَيْتُ مُنْذُ عقلْتُ مِثْلَ مُحَمَّدِ بنِ إِسمَاعيلَ[3].

فهذه بعض أقوال شيوخه، وأما أقرانه فقد كانوا يجلونه ويعظمونه أعظم إجلال وتقدير، فهذا مسلم صاحب الصحيح يقول وقد رأى الإمام البخاري: دعني أقبل رجليك يا أستاذَ الأسْتاذين، وسيدَ المحدثين، وطبيبَ الحديث في عِلَلِهِ[4]. وقال كذلك لما دخل عليه يسأله عن علة حديث من الأحاديث كما روى ذلك أَبُو حَامِدٍ أَحْمَدُ بنُ حمدُوْن القصَّارُ قَالَ: سَمِعْتُ مُسْلِمَ بنَ الحَجَّاجِ، وَجَاءَ إِلَى البُخَارِيِّ، فَقَبَّلَ بَيْنَ عينيهِ، وَقَالَ: «دعنِي أُقَبِّلُ رِجْليكَ.

(١) هو قتيبة بن سعيد بن جميل بن طريف الثقفي مولاهم شيخ الإسلام، المحدث، الإمام، الثقة الجوال، راوية الإسلام أبو رجاء وتوفي سنة (٢٤٠هـ). ينظر: سير أعلام النبلاء (٩/ ٨٦) طبقات الحفاظ للسيوطي (ص:١٩٨).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٣١).

(٣) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٢/ ٤٣١).

(٤) تاريخ الإسلام للذهبي (١٩/ ٢٤٧).

ثُمَّ قَالَ: حَدَّثكَ مُحَمَّدُ بنُ سَلاَمٍ، حَدَّثَنَا مَخْلَدُ بنُ يَزِيْدَ الحَرَّانِيُّ، أَخْبَرَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ مُوْسَى بنِ عُقْبَةَ عَنْ سُهَيْلٍ، عَنِ أَبيه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي كَفَّارَةِ المَجْلِسِ، فَمَا عِلَّتُهُ؟».

قَالَ مُحَمَّدُ بنُ إِسْمَاعِيْلَ: «هَذَا حَدِيْثٌ مَلِيْحٌ، وَلاَ أَعْلَمُ بِهَذَا الإِسْنَادِ فِي الدُّنْيَا حَدِيْثاً غَيْرَ هَذَا الحَدِيْثِ الوَاحِدِ فِي هَذَا البَابِ، إِلاَّ أَنَّهُ معلولٌ حَدَّثَنَا بِهِ مُوْسَى بنُ إِسْمَاعِيْلَ، حَدَّثَنَا وُهَيْبٌ، حَدَّثَنَا سُهَيْلٌ، عَنْ عَوْنِ بنِ عَبْدِ الله قَوْلَهُ، قَالَ مُحَمَّدٌ: وَهَذَا أَوْلَى، فَإِنَّهُ لاَ يُذكَرُ لِمُوْسَى بنِ عُقْبَةَ سَمَاعٌ مِنْ سُهَيْلٍ.

فَقَالَ لَهُ مُسْلِمٌ: «لاَ يُبْغِضُكَ إِلاَّ حَاسِدٌ، وَأَشْهدُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مِثْلُكَ»[1].

وهذه شهادة محمود بن النضر أبي سهل أنه كان المقدم في جميع ديار الإسلام فيقول: دخلت البصرة والشام والحجاز والكوفة، ورأيت علماءها، كُلّما جَرَى ذِكْرُ مُحمد بن إسماعيل فضّلوه على أنفسهم[2].

بل قد بلغوا من معرفة قدر الإمام البخاري وحاجة الأمة له أنهم كانوا يتمنون أن يعطوه من أعمارهم لما رأوا له من الفضل والعلم، يقول أَبُو جَعْفَرٍ: سَمِعْتُ يَحْيَى بنَ جَعْفَرٍ يَقُوْلُ: «لَوْ قَدرْتُ أَنْ أَزيدَ فِي عُمُرِ مُحَمَّدِ

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٣٦).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٢٢).

بنِ إِسْمَاعِيْلَ مِنْ عُمُرِي لفعلْتُ، فَإِنَّ مَوْتِي يَكُوْنُ مَوْتَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، وَموتُهُ ذهَابُ العِلْمِ[1].

فإذا كان هذا موقف وثناء شيوخه وأقرانه فماذا سيقول تلاميذه، فهذا إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة صاحب صحيح ابن خزيمة يقول: ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بحديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأحفظ له من محمد بن إسماعيل[2].

وأما أبو عيسى الترمذي صاحب جامع الترمذي فيقول: «كان محمد بن إسماعيل عند عبد الله بن منير وهو من كبار الزهاد والعباد، فلما قام من عنده قال له ابن منير: يا أبا عبد الله، جعلك الله زين هذه الأمة. قال الترمذي: استجيب له فيه[3].

والكلمة الجامعة الخاتمة لمن؟! لحذام المحدثين الذي عاش مع صحيح البخاري عشرين سنة الحافظ ابن حجر يقول - بعد أن نقل جملة من ثناء العلماء عليه-: «ولو فتحت باب ثناء الأئمة عليه ممن تأخر عن عصره لفني القرطاس ونفدت الأنفاس فذاك بحر لا ساحل له...»[4].

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٢٢).

(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٢/ ٤٣١).

(٣) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٢/ ٤٣٣).

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١/ ٤٨٥) ط: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩.

وقال النووي بعد أن ذكر شيئًا من ترجمة البخاري: «ومناقبه لا تُستَقصى؛ لخروجها عن أن تحصى، وهي منقسمة إلى حفظ، ودراية، واجتهاد في التحصيل، ورواية، ونسك، وإفادة، وورع، وزهادة، وتحقيق، وإتقان، وتمكّن، وعرفان، وأحوال، وكرامات، وغيرها من أنواع المكرمات، ويوضح ذلك ما أشرت إليه من أقوال أعلام المسلمين أولي الفضل والورع والدين، والحفاظ والنقاد المتقنين، الذين لا يجازفون في العبارات، بل يتأملونها ويحررونها، ويحافظون على صيانتها أشد المحافظات، وأقاويلهم بنحو ما ذكرته غير منحصرة»[1].

وقال الحافظ الذهبي: «قد أفردتُ مناقب هذا الإمام في جزء ضخم فيها العجب»[2].

* * *

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٧٦).

(٢) تذكرة الحفاظ (٢/ ١٠٥).

مكانة الإمام البخاري
ومحبته في قلوب المسلمين

وبعد هذا التجوال في صفحات سيرة إمام الأئمة البخاري فندلف الآن إلى عرض مكانته في قلوب عامة المسلمين، وعظيم قدره عندهم، فقد كان كلما حل مدينة أو نزل أرضًا ازدحم حوله المسلمون ازدحامًا يفوق الوصف والبيان .

وكان الناس بعد ما سمعوا تلك الأوصاف الخارقة التي وهبها الله لهذا الإمام الجليل من فقه عديم النظير، وذاكرة خارقة، وتَبحُّر في العلم؛ كانوا يتمنون رؤيته، فإذا نزل مكانًا تجمعوا حوله بحيث لا يكاد يوجد موضع قدم.

يقول أحمد بن منصور الشيرازي: لما رجع أبو عبد الله البخاري إلى بخارى من رحلاته نصبت له قباب على فرسخ البلد، واستقبله عامة أهل البلد، حتى لم يبق مذكور، ونثر عليه الدراهم والدنانير.

أما أهل نيسابور فيقول الإمام مسلم: لما قدم البخاري نيسابور ما رأيت واليًا ولا عالمًا فعل به أهل نيسابور ما فعلوا به، استقبلوه مرحلتين

وثلاث، وخرج أربعة آلاف رجل ركبانًا على الخيل، سوى من ركب بغلًا أو حمارًا، وسوى الرجالة[1].

وأما أهل البصرة فيقول حاشد بن إسماعيل: «كَانَ أَهْلُ المَعْرِفَةِ بِالبَصْرَةِ يَعْدُونَ خَلْفَ البُخَارِيِّ فِي طلبِ الحَدِيْثِ، وَهُوَ شَابٌّ حَتَّى يغلِبُوهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَيُجْلِسُوهُ فِي بَعْضِ الطَّرِيْقِ، فيجتمعُ عَلَيْهِ أَلوفٌ أَكْثَرُهُم مِمَّنْ يَكْتُبُ عَنْهُ.

قَالاَ: وَكَانَ أَبُو عَبْدِ الله عِنْدَ ذَلِكَ شَابّاً لَمْ يخرجْ وَجْهُهُ»[2].

فها هم شهداء الله في الأرض قد أثنوا خيرًا على إمام الدنيا، وحافظها، وأميرها في زمانه.

فَعنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْ مَلأَ اللهُ أُذُنَيْهِ مِنْ ثَنَاءِ النَّاسِ خَيْرًا وَهُوَ يَسْمَعُ، وَأَهْلُ النَّارِ مَنْ مَلأَ اللهُ أُذُنَيْهِ مِنْ ثَنَاءِ النَّاسِ شَرًّا وَهُوَ يَسْمَعُ**»[3].

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٥٨).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٣٧).

(٣) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٥ / ٣٠٤) برقم: (٤٢٢٤) والبزار في «مسنده» (١١ / ٣٣٩) برقم: (٥١٥٥) والطبراني في «الكبير» (١٢ / ١٧٠) برقم: (١٢٧٨٧)، وصححه البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ٢٤٣).

عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي زُهَيْرٍ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ بِالنَّبَاءَةِ - أَوْ بِالنِّبَاوَةِ، شَكَّ نَافِعٌ - مِنَ الطَّائِفِ، وَهُوَ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تُوشِكُونَ أَنْ تَعْرِفُوا أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ -أَوْ قَالَ: خِيَارَكُمْ مِنْ شِرَارِكُمْ- قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ النَّاسِ: بِمَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: بِالثَّنَاءِ السَّيِّئِ، وَالثَّنَاءِ الْحَسَنِ، وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ»[1].

وأما أنتم أيها الطاعنون في سنة المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والشانئون لرواة حديثه، لقد خضتم لجج الهلاك، وركبتم مركب السوء، وعرضتم أنفسكم لسخط شهداء السماء والأرض حين صرتم حطبًا لأهوائكم وشهواتكم، فما هو موقفكم غدا حين يشهد عليكم الخلق بعداوتكم للرحمة المهداة، والنعمة المسداة، فيا لندامتكم يوم لا ينفع الندم، ويالحسرتكم يوم الحسرة.

* * *

(١) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٥ / ٣٠٢) برقم: (٤٢٢١) وأحمد في «مسنده» (٦ / ٣٢٦٨) برقم: (١٥٦٧٨)، وابن حبان في «صحيحه» (١٦ / ٣٩٢) برقم: (٧٣٨٤)، والحاكم في «مستدركه» (١ / ١٢٠) برقم: (٤١٢) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد. وحسنه ابن حجر في الإصابة (٤/ ٧٧).

من أسرار عظمة صحيح البخاري

كما تبوأ الإمام البخاري تلك المنزلة العظيمة الجليلة فكذلك صحيحه الكتاب الذي نال قصب السبق، والقدح المعلى، وتلقته الأمة بالقبول، ونهل منه العلماء، وأقبل عليه المحققون، وغدا ذكره عند الخاص والعام، والحاضر والباد، ولم ينل كتاب من كتب الحديث ما ناله من الشرح لأحاديثه، وبيان غريبه، ودراسة ترتيبه وتبويبه، وأسانيده ومتونه، واستخراج درر استنباطاته، ودقائق فهمه.

والسؤال الذي يفرض نفسه: ما الأسرار التي أدت إلى بلوغ هذا الكتاب هذه المنزلة؟!

حتى غدا عوام المسلمين إذا أخطأ الرجل فيهم فلام الناس عليه وأكثروا من اللوم يقول: « وهل أخطأت في البخاري»؟!!

وكأن الخطأ في صحيح البخاري خطأ غير مغفور عند المسلمين وكأن الذنب مهما عظم لا يساوي عند الناس الخطأ في حق صحيح محمد بن إسماعيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

إنهـا أسرار عظيمة تجلي لنا أن ذلك إنما كان بعـد توفيق الله أولاً وآخرًا بأسباب، كل من أخذ بها علا وارتفع، ودونك هذه الأسرار:

السر الأول- الإخلاص

وهو سر الأسرار، وسـبب الأسباب، وبه يحصل الثبات في الحياة وعند الممات، وبه تتفاوت أعمال العباد في الدرجات كما بين الأرض والسموات، فكل ما كان عملك خالصاً صافيًا لربك سـبحانه، لا تريد أيَّ مقصد من مقاصد الدنيا، بقي لك الذكر الحسن، وحفظ الله لك أعمالك، ونشرها بين العباد إلى قيام الساعة.

ومـن الكلمات الخالدة التي سـطرها لنا علماء الإسـلام، وتكتب بماء الذهـب بل بماء العيون: «ما كان لله بقي»، هذه الكلمة التي أطلقها مدوية الإمـام مالك عندما حصل في زمانه تنافس بين العلماء في تأليف الموطآت، وخاف تلاميـذ الإمام مالك على كتابه الموطـأ أن لا يكون له حضور بين المصنفات، وأن يُنسـى مع وجـود كثير من الموطآت التـي هي أكبر منه، فقال تلك الكلمة الخالدة: «ما كان لله بقي» فنُسيت جميع تلك الموطآت ولم تشتهر، وبقي موطأه شامخاً إلى يومنا هذا.

وسار الإمام البخاري على سـيرة من سبقه في تحرِّيه طلب الإخلاص، وسن سنة حسنة لكل من أراد أن يؤلف كتاباً حيث جعل أول حديث كتابه

قول النبـــي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَـــا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَـــا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»[1]، وذكر هذا الحديث في باب بدء الوحي مع أنه لا علاقة له بهذا الباب من حيث الموضوع؛ ولكن أراد الإمام البخاري بذكره لهذا الحديث أن يُذكِّر نفســه بالمقصود الأســمى، والهدف الأعلى، وهو الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا الحديث الذي يبعث على اســتحضار النية الصالحة والإخلاص لله مـــن الأحاديث التي كان العلماء يعقدون العزم على أنهم إذا صنفوا كتابًا صدروه بهذا الحديث، يقول الحافظ الإمام الهمام الثقة الثبت عبد الرحمن بن مهدي[2]: «لو صنفت كتابًا في الأبواب لجعلت حديث عمر بن الخطاب في الأعمال بالنيات في كل بـــاب»[3]، فلعل البخاري عمل بهذه الوصية الزكية التقية النقية.

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (١ / ٦) برقم: (١).

(٢) ثقــة ثبت حافظ عــارف بالرجال و الحديث، قال ابن المديني: مــا رأيت أعلم منه. قال الشافعي: لا أعرف له نظيرًا في الدنيا. ذكره ابن حبان في «الثقات»، وقال: كان من الحفاظ المتقنــين، وأهل الورع في الدين، ممن حفظ و جمع، وتفقه وصنف، وحدث، وأبى الرواية إلا عن الثقات، توفي ســنة ١٩٨ هـ. ينظر: الثقات لابن حبان (٨/ ٣٧٣)، ســير أعلام النبلاء (٩/ ١٩٢).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٦١).

وهذه السنة سار عليها عالم همام أبقى الله لكتابيه من الانتشار والقبول ما لم يحصل إلا لقليل من العلماء، حتى قال الذهبي: «ليتني أعلم ما فعل فلان مع الله حتى كانت له هذه المكانة والقبول».

إنه -يا كرام- الحافظ النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي ما عاش إلا خمسًا وأربعين سنة، هذا الحافظ سار سيرة الإمام البخاري، فصدر بذلك الحديث كتابين من كتبه التي انتشرت في مشارق الأرض ومغاربها، ولا تكاد تجد مسجدًا ولا بيتاً إلا وفيه هذان الكتابان، وقد حاز كتابه الأربعين النووية أكثر الكتب مبيعاً، وليس في العالم الإسلامي فحسب، بل حتى في فرنسا كما ذكرت ذلك مجلة (جون أفريك).

هل كان النووي يظن أن يكون له حسنات في شوارع باريس، إنه الإخلاص لله فيما نحسب، والله حسيبه .. رحم الله علماء الإسلام.

السر الثاني- التبرك بالأمكنة والأزمنة المرضية عند رب البرية في نجاح عمله

وهذه قضية أساسية في نجاح الأعمال وذلك بطلب الأماكن، والأزمان التي يحبها الله تعالى ويفضلها على غيرها، فيقيم فيها ذلك العمل رجاء توفيق الله له؛ لأن كل عمل لا يستحضر فيه العبد طلب توفيق رب العزة والجلال فهو عمل لا يحالفه السداد والنجاح الكبير، وقد طلب الإمام

البخاري جملة من الوسائل التي تدل على تعلق قلبه بطلب رضا ربه في قبوله عمله، وذلك في ما يلي:

الأمر الأول- في اختيار مكان تبييض أحاديث الكتاب وتراجمه، فأما الأحاديث فكان تبييضها في المسجد الحرام، قال عمر بن محمد بن بجير البجيري: سمعت محمد بن إسماعيل يقول: «صنفت كتابي الجامع في المسجد الحرام»[1].

وأما تراجم الأبواب فقد بيضها في المسجد النبوي، قال أبو أحمد بن عدي عن عبد القدوس بن همام قال: «شهدت عدة مشايخ يقولون: حول البخاري تراجم جامعه -يعني بيضها- في الروضة الشريفة، وكان يصلي لكل ترجمة ركعتين»[2].

الأمر الثاني- الالتجاء إلى الله بالاستعانة بالصلاة والاستخارة في وضع الحديث في جامعه يقول: «قَالَ الفِرَبْرِيَّ: قَالَ لِي مُحَمَّدُ بنُ إِسْمَاعِيْلَ: «مَا وضعتُ فِي كِتَابِي (الصَّحِيْحِ) حَدِيْثًا إِلاَّ اغتسلتُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَصَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ»[3].

(١) هدى الساري مقدمة فتح الباري (ص: ٤٨٩).
(٢) المصدر السابق (ص: ١٣)، سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٠٤).
(٣) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٠٢).

الأمر الثالث- استشعار أنه يتعامل مع الله، ولذلك قال عن مشروعه: «صنفت الجامع من ستمائة ألف حديث في ست عشرة سنة، وَجَعَلْتُهُ حُجَّةً فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ الله تَعَالَى»[1]، فقضيته ليست تأليفًا لتجارة ولا لنيل شهادة أو ترقية، أو وجاهة وشهرة، وإنما نحسبه والله حسيبه كان قصده ابتغاء وجه الله.

السر الثالث- التميز

من أركان التميز في العمل أن لا يكون في الباب غيره، مع وجود الحاجة الملحة له، وهذا مما تميز به سلف الأمة أنهم كانوا لا يؤلفون في الغالب إلا إذا وجدوا حاجة لذلك العمل أو التأليف، فلم يكونوا يؤلفون من أجل المتاجرة بتلك الكتب، حاشاهم، وهذا مما تميز به صحيح البخاري فقد كانت الكتب التي أُلفت قبله لم تشترط الصحة في تأليفها، وكذلك لم تقتصر على سنة خير المرسلين، بل كانت تشتمل على الأحاديث والأثار التي فيها ضعف.

والمتميزون المبدعون من أبرز صفاتهم اقتناص الفرص، وتحويلها إلى مشاريع جادة، وهذا حال أمير المؤمنين في الحديث، وشيخ المبدعين والمتميزين، وهو ما عرف به، فقد قال عند تأليف كتابه التأريخ: «لَوْ نُشِرَ

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٠٥).

بَعْضُ أُسْــتَاذِي[1] هَؤُلَاءِ لَمْ يفهمُوا كَيْفَ صنَّفْتُ (التَّارِيْخَ)، وَلَا عرفُوهُ، ثُمَّ قَالَ: صنَّفْتُهُ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ[2]».

وقال أَبُو جَعْفَــرٍ مُحَمَّدُ بنُ أَبِي حَاتِمٍ: «أَخذ إِسْــحَاقُ بنُ رَاهْوَيْه كِتَابَ (التَّارِيْخِ) الَّذِي صنَّفْتُ، فَأَدخلَهُ عَلَى عَبْدِ الله بنِ طَاهِرٍ، فَقَالَ: أَيُّهَا الأَمِيْرُ، أَلاَ أُرِيكَ سِحْراً؟ قَالَ: فَنَظَرَ فِيْهِ عَبْدُ الله، فَتَعَجَّبَ مِنْهُ، وَقَالَ: «لَسْتُ أَفهُمُ تَصْنِيْفَهُ»[3].

ولذلك عندما ســمع البخاري من شيخه الإمام الحافظ صاحب المسند إسحاق بن راهويه أنه قال: «لَوْ جمعتُم كِتَاباً مختصِراً لسُنَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَوَقَــعَ ذَلِكَ فِي قَلبِي، فَأَخذتُ فِي جمعِ هَذَا الكِتَابِ»[4]، فأخذها هذا الألمعي والجهبذ، وعقد العزم، وشمر عن ساعد الجد؛ لكي يجمع كتابًا يشتمل على الصحيح من أحاديث الرســول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ثم جاء تأييد السماء، وجاءته مبشرات النبــوة، وهو أنه رأى النبــي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في المنام وهو واقف بين يديه، وبيده مروحة يذب بها عن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فسأل أحد المعبرين عن ذلك فقال له: أنت تذب وتبعد الكذب عن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ».

(١) تصحفت في « تاريخ بغداد « ٢ / ٧» و طبقات السبكي « ٢ / ٢٢١ إلى «إسنادي».

(٢) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٠٣).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٠٣).

(٤) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٠١).

وقال أَبو زيدٍ المَرْوَزِيَّ الفَقِيْهَ يَقُوْلُ: «كُنْتُ نَائِماً بَيْنَ الرُّكْنِ وَالمقَامِ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لِي: «**يَا أَبَا زيدٍ، إِلَى مَتَى تدرسُ كِتَابَ الشَّافِعِيّ، وَلاَ تدرُسُ كِتَابِي؟**»

فَقُلْتُ: يَا رَسُوْلَ الله وَمَا كِتَابُكَ؟

قَالَ: «**(جَامِعُ) مُحَمّدِ بنِ إِسْمَاعِيْلَ**»»[1].

قال الحافظ: «فلما رأي البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ هذه التصانيف ورواها، وانتشق رياها، واستجلى محياها، وجدها بحسب الوضع جامعة بين ما يدخل تحت التصحيح والتحسين، والكثير منها يشمله التضعيف، فلا يقال لغثه: سمين. فحرك همته لجمع الحديث الصحيح الذي لا يرتاب فيه أمين، وقوى عزمه على ذلك ما سمعه من أستاذه أمير المؤمنين في الحديث والفقه إسحاق بن إبراهيم الحنظلي»[2].

(١) (١٢/ ٤٣٨).

(٢) هدى الساري مقدمة فتح الباري (ص: ٦).

السر الرابع- الإبداع:

لكل عمل عظيم إبداعات تدل على عظمته، وقد أبدع الإمام البخاري في جوانب عدة، ومن تلك الجوانب:

أولًا- تراجم أبوابه التي حيرت الأفكار، وأدهشت العقول والابصار.

ومع ما اشتمل عليه الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الحفظ الغزير، وما يعجز عنه الواصف من معرفة الفن القاضي بأنَّه ليس له فيه نظير، فكتابه يشهد له بالتقدُّم أيضًا في استنباط المسائل الدقيقة، وإزاحات الإشكالات بالكلمات اليسيرة الأنيقة؛ كقوله: باب قول النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يُعَذَّبُ المَيِّتُ بِبَعْضِ بُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ**»[1] «**إِذَا كَانَ النَّوْحُ مِنْ سُنَّتِهِ**»[2].

كلُّ هذا مع الاطلاع على اللغة والتوسُّع فيها، وإتقان العربية والصرف إيضاحًا وتنبيهًا، ومَن تأمَّل اختياراته الفقهية في «جامعه»؛ علم أنَّه كان مجتهدًا موفَّقًا مسدَّدًا، ثم رأى أن لا يخليه من الفوائد الفقهية والنكت الحكمية، فاستخرج بفهمه من المتون معاني كثيرة، فرقها في أبواب الكتاب

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب الجنائز، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُعَذَّبُ المَيِّتُ بِبَعْضِ بُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ» إِذَا كَانَ النَّوْحُ مِنْ سُنَّتِهِ « (٢ / ٧٩) برقم: (١٢٨٤).

(٢) صحيح البخاري (٢ / ٧٩).

بحسب تناسبها، واعتنى فيه بآيات الأحكام فانتزع منها الدلالات البديعة وسلك في الإشارة إلى تفسيرها السبل الوسيعة[1].

ويقـــول الإمام القدوة أبو محمد بن أبي جمـــرة: «وكذلك الجهة العظمى الموجبة لتقديمه، وهي ما ضمنـــه أبوابه من التراجم التي حيرت الأفكار، وادهشت العقول والأبصار، وإنما بلغت هذه الرتبة، وفازت بهذه الخطوة؛ لســـبب عظيم أوجب عظمهـــا، وهو ما رواه أبو أحمد بـــن عدي عن عبد القدوس بن همام قال: «شـــهدت عدة مشـــايخ يقولـــون: حول البخاري تراجم جامعـــه -يعني: بيضها- بين قبر النبـــي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومنبره، وكان يصلي لكل ترجمة ركعتين»[2].

ثانيًا- إبداعه في تكرار وتقطيع الأحاديث.

قـــال الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي: «... والبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ كان يذكر الحديث في كتابه في مواضع، ويستدل به في كل باب بإسناد آخر، ويستخرج منه بحسن اســـتنباطه، وغزارة فقهه معنى يقتضيه الباب الذي

(١) هدى الساري مقدمة فتح الباري (ص: ٨).

(٢) هدى الساري مقدمة فتح الباري (ص: ١٣).

أخرجه فيه، وقلما يورد حديثًا في موضعين بإسناد واحد ولفظ واحد، وإنما يورده من طريق أخرى لمعان»[1].

ثم ذكر جملة كبيرة من تلك المعاني الدقيقة والنكت البديعة التي تشهد على براعته، وإتقانه، وفطنته، ودقته، وإمامته.

السر الخامس- الإتقان

انطلق الإمام البخاري من قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ**»[2]، ففي هذا الحديث إشارة عظيمة إلى أن الأعمال التي تبقى وتستمر هي تلك الأعمال المتقنة التي يحبها الله، فالله جل في علاه إذا أحب شخصًا أو عملًا وضع له القبول في الأرض كما في الحديث: «**إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ**»[3]، ومن هنا يجب علينا

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (١/ ١٥)، ط: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩.

(٢) أخرجه أبو يعلى في "مسنده" (٧ / ٣٤٩) برقم: (٤٣٨٦)، والطبراني في «الأوسط» (١ / ٢٧٥) برقم: (٨٩٧)، وحسنه السيوطي في الجامع الصغير (١٨٥٥)، والألباني في صحيح الجامع (١٨٨٠).

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٤ / ١١١) برقم: (٣٢٠٩) ومسلم في «صحيحه» (٨ / ٤٠) برقم: (٢٦٣٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

أن نتقــن في جميع أعمالنا، وكان للإمام البخــاري الحظ الأوفر، والنصيب الأوفى من طلب معايير الإتقان والجودة ومنها:

أولًا- علو أســانيده، وهذه لا تتحقق إلا بكثرة السفر والتطواف، وقد سافر الإمام البخاري قرابة ثلاثين ألف كيلاً، كل ذلك لكي يصل إلى أعلى الأسانيد إلى رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فكلما علا الإسناد قل الخطأ، وقد تحقق له اثنان وعشرون حديثًا من الأحاديث الثلاثية العالية الإسناد، وهي التي بينه وبين رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ثلاثة رواة، قال العيني: «ويبلغ جَمِيعهَا أَكثر من عشْرين حَدِيثا، وَبِه فضل البُخَارِيّ على غَيره»[1].

ثانيًا- اشــترط في الرواة الذين يخرج لهم في صحيحه شروطًا دقيقة، بل عُدَّ البخاري من المتشددين في شروطه في الرجال، كلُّ ذلك من أجل طلب أعلى درجات الصحة، حتى قيل في الــراوي الذي أخرج له البخاري: قد جاوز القنطرة في الغالب. قال البخاري: "ما أدخلت في هذا الكتاب إلا ما صح، وتركت من الصحاح كي لا يطول الكتاب»[2].

ثالثًا- لم يكن جمع الصحيح في يوم أو يومين، أو شــهر أو شــهرين، بل ولا ســنة ولا سنتين، وإنما اســتمر في جمع الصحيح ست عشر سنة، يتنقل

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢/ ١٥٣)، ثلاثيات الإمام البخاري، د. يوسف الكتاني، مجلة السنة النبوية، العدد الرابع، (ص: ٤٧٢).

(٢) هدى الساري مقدمة فتح الباري (ص: ٧).

من مدينة إلى مدينة، ومن شـيخ إلى شـيخ، كل ذلك يتحرى في الشيوخ، ويجمع الطرق والروايات، حتى قال البخاري: «أخرجت هذا الكتاب من زهاء ستمائة ألف حديث». وقال: «صنفت «الصحيح» في ست عشرة سنة، وجعلته حجة فيما بيني وبين الله تعالى»[1].

رابعًا- ومع كل هذه الأسباب المادية التي أخذ بها إلا أنه يعلم علمًا يقينيًا أن هذه الأسـباب لا تغني شيئًا إذا لم يكن عناية الله وتوفيقه محيطان بالعبد، فمهما بلغ الإنسـان من العلم والفهم والتدقيق فهـو محتاج إلى ربه في كل لحظة وحين، ولذا ضرب الإمام البخاري أروع الصور في تعلقه بربه حيث يقول: «ما وضعـت في كتابي «الصحيح «حديثًا إلا اغتسـلت قبل ذلك، وصليت ركعتين».

خامسًـا- من المعايير المهمة في الإتقان: مراجعة العمل والنظر فيه عدة مرات، وهذا ما كان عليه الإمـام البخاري، فكان لا يؤلف مؤلفًا إلا كتبه ثلاث مرات، قال محمد بن أبي حاتم: وسـمعته يقول: «صنفت جميع كتبي ثلاثً مرّات»، وهذا السـبب الذي أدى إلى إطالـة المدة، والذي يظهر أن صحيحيه راجعه مرات ومرات؛ لأنه كان يرويه ويسمعه كلما نزل مدينة.

(١) هدى الساري مقدمة فتح الباري (ص: ٤٨٩).

سادسًا- من معايير الجودة والإتقان: عرض العمل على المتخصصين في كل فن، وقد عرضه الإمام البخاري على جهابذة المحدثين وأئمة النقاد في زمانه قال أبو جعفر محمود بن عمرو العقيلي: «لما ألف البخاري كتاب الصحيح عرضه على أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وعلى بن المديني، وغيرهم، فاستحسنوه وشهدوا له بالصحة، إلا في أربعة أحاديث، قال العقيلي: والقول فيها قول البخاري وهي صحيحة»[1].

سابعًا- روايته لآلاف المحدثين ونقاده في مشارق الأرض ومغاربها، ومع ذلك لم يعترض عليه في زمانه أحد منهم، وهذا إن دل فإنما يدل على أنه وصل بكتابه الكمال البشري لا سيما مع كثرة حساده.

ثامنًا- بذل غاية الجهد في الوصول إلى أعلى درجة الإتقان وهو اليقين بجودة العمل، قال عمر بن محمد بن بجير البجيري سمعت محمد بن إسماعيل يقول: «صنفت كتابي الجامع ...، وما أدخلت فيه حديثا حتى تيقنت صحته»[2].

* * *

(١) هدى الساري مقدمة فتح الباري (ص: ٧).

(٢) المصدر السابق (ص: ٤٨٩).

ماذا يجب على الأمة
في نصرة الإمام البخاري وصحيحه؟

تبين مما سبق المنزلة الجليلة للإمام البخاري وصحيحه، وهذا البيان حجة علينا أجمعين بين يدي رب العالمين إذا لم نبذل وسعنا في الذب عن عرض البخاري، والذود عن صحيحه، حمايةً لدين الإسلام من مكر الليل والنهار الذي يكيده أعداء الإسلام لطمس معالم ديننا الحنيف وأصوله التي لم يتنازع فيها اثنان، وفي ما يلي رسائل فيها شرح لبعض الواجب تجاه هذا الإمام الجليل وصحيحه:

الرسالة الأولى- إلى حكام المسلمين: يجب على كل حاكم مسلم أن يغار ويغضب لكل من يتكلم في السنة النبوية أو يتكلم في نقلتها بالسوء، وأن يبرمج ذلك الغضب بإجراءات صارمة رادعة كما يتخذ تلك الإجراءات إذا مست دولته أو شخصه.

الرسالة الثانية- لعلماء الأمة الذين حمَّلهم الله أمانة حفظ الدين، وتبليغه، ونصرته، والتضحية بكل غال ونفيس في الحفاظ عليه، فالواجب عليكم يا علماء الإسلام عظيم، والحمل ثقيل، والمسؤولية كبيرة، والقضية خطيرة، ولعل أقل ما يقوم به الواجب أن تجتمعوا في هذه الأيام، وتصدروا وثيقة تبين حكم هؤلاء ومنزلتهم في الإسلام حتى نحافظ على عامة الأمة .

الرسالة الثالثة- لكم يا أهل الدثور أهل الأموال والفضل، فقد منَّ الله عليكم بهذا المال الذي هو مال الله وليس بمالكم، فهو المعطي سبحانه والباسط والرازق، فالوجب عليكم أن تبذلوا وتخصصوا من أموالكم ما يفي بنصرة سنة خير المرسلين ﷺ، فإن نصرتها في هذا الزمان من أوجب الواجبات ومن أهم المهمات ومن أفضل من الجهاد في سبيل الله، فالله الله بالبذل والعطاء في هذا الباب العظيم، ودعم المشاريع التي قد نذرت نفسها لنصرة سنة رسول الله ﷺ حتى يتحقق المقصود بالتكامل بين الباذلين للعلم والباذلين للمال.

الرسالة الرابعة- إلى طلبة العلم المتخصصين في السنة النبوية، هذا سؤال أطرحه بين أيديكم، وآمل أن يجيب كل شخص بصدق وإخلاص ومصارحة مع نفسه: ماذا قدمت؟ ما هي برامجك؟ ما هي مشاريعك؟ ما هي مشاركتك في صد هذه الهجمة الشرسة على السنة وعلى صحيح البخاري على وجه الخصوص؟ إنني أدعوك إلى أن تكون منارة في دعوة الناس إلى تعظيم السنة، ومنبرًا قويًا في الرد على شبه الطاعنين.

الرسالة الخامسة- إلى مثقفي الأمة ومبدعيها ومفكريها ومنشديها وشعراءها، جاهدوا بما وهبكم الله من مواهب وقدرات في سبيل نصرة سنة حبيبكم ﷺ، ولتعلموا أن المسؤولية عامة، وكل واحد منكم

على ثغر، فاجعلوا من أقلامكم وأصواتكم رسالة تشاركون بها في توعية الجيل بأهمية التمسك بكتاب الله وسنة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الرسالة السادسة- إلى عامة الأمة، هذه سنة نبيكم التي بها تسعدون وبها تنعمون، وبها تعرفون دينكم فتتعبدون، فأقبلوا عليها تعلُّمًا وتفهُّمًا، ودعوة وتعليمًا، وامتثالًا لأوامرها، واجتنابًا لنواهيها.

❊ ❊ ❊

قائمة المراجع

١- الإصابة في تمييز الصحابة، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، ت: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٥ هـ.

٢- التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان وتمييز سقيمه من صحيحه، وشاذه من محفوظه، مؤلف الأصل: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)

ترتيب: الأمير أبو الحسن علي بن بلبان بن عبد الله، علاء الدين الفارسي الحنفي (المتوفى: ٧٣٩هـ)

مؤلف التعليقات الحسان: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: دار با وزير للنشر والتوزيع، جدة - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

٣- الثقات، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، طبع بإعانة: وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية، تحت مراقبة: الدكتور محمد عبد المعيد خان مدير دائرة المعارف العثمانية، النـاشر: دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند، الطبعة: الأولى، ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣.

٤- الجامع المسـند الصحيح المختصر من أمور رسـول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري،: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، ت: محمد زهير بن ناصر الناصر.

الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السـلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٥- الجامـع لعلوم الإمام أحمد – العقيـدة، أبو عبد الله أحمد بن حنبل، المؤلف: خالد الرباط، سـيد عزت عيد، محمد أحمد عبد التواب [بمشاركة الباحثين بدار الفلاح]، الناشر: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الفيوم - جمهورية مصر العربية،الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

٦- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السـامع، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بـن مهدي الخطيب البغدادي (المتـوفى: ٤٦٣هـ)، ت: د. محمود الطحان الناشر: مكتبة المعارف – الرياض.

٧- الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم ، ط: مجلس دائرة المعارف العثمانية - بحيدر آباد الدكن – الهند.

٢٣- تاريخ بغداد، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، ت: الدكتور بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢ م.

٨- المعلم بشيوخ البخاري ومسلم، أبو بكر محمد بن إسماعيل بن خلفون (المتوفى ٦٣٦ هـ)، ت: أبو عبد الرحمن عادل بن سعد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت.

٩- المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي الفارسي (المتوفى: ٣٦٠هـ)، ت: د. محمد عجاج الخطيب، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٤.

١٠- المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، ت: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب،الطبعة: الثانية، ١٤٠٦ – ١٩٨٦.

١١- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

١٢- الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى: ٧٦٤هـ) ت، أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى الناشر: دار إحياء التراث – بيروت، عام النشر: ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.

١٣- أمهات مؤمنات غيرن وجه العالم،، أحمد الجوهري عبد الجواد، دار المازري - تونس.

١٤- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، ت: عمر عبد السلام التدمري، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م.

١٥- تاريخ دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: ٥٧١هـ)، ت: عمرو بن غرامة العمروي الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عام النشر: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م.

١٦- تحفة السامع والقاري في ختم صحيح البخاري، المؤلف: محمد بن محمد بن محمد بن عبد القادر الجعفري الحنبلي، وانظر الحطة في ذكر الصحاح الستة، لصديق حسن خان، ط: دار الجيل، ت: علي حسن الحلبي.

١٧- تذكرة الحفاظ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)

الناشر: دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

١٨- تهذيب الأسماء واللغات، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه ومقابلة أصوله: شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية.

١٩- تفسير الطبري، محمد بن جرير ط: مؤسسة الرسالة ١٤٢٠ه، ت: أحمد شاكر.

٢٠- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، ت: الدكتور محمد الأحمدي أبو النور

الناشر: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.

٢١- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، الناشر: السعادة - بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

٢٢- خريطة سامي المغلوث في كتابه أطلس الفرق والمذاهب في التاريخ الإسلامي.

٢٣- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض الطبعة: الأولى، (لمكتبة المعارف).

٢٤- سنن ابن ماجه، ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣هـ)

ت: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي.

٢٥- سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد

الناشر: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت

٢٦- سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)

ت:أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)

ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)

وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)

الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر

الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.

٢٧- سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، ت: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م.

٢٨- ضعيف الجامع الصغير وزيادته، ت: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الديـــن، بن الحاج نوح بـــن نجاتي بن آدم، الأشـــقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، أشرف على طبعه: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي.

٢٩- طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين الســـبكي (المتوفى: ٧٧١هـــ)، المحقق: د. محمود محمـــد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو

الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة: الثانية، ١٤١٣هـ.

٣٠- فتح الباري شرح صحيح البخـــاري، ط: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩.

٣١- مجلة السنة النبوية، العدد الرابع.

٣٢- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أســـد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، ت: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي

الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

٣٣- مناقب الإمام أحمد، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ، الناشر: دار هجر، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ١٤٠٩هـ.

٣٤- هدى الساري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩.

* * *